متلازمة مريم

الملتقى للنشر و التوزيع

إسم الكتاب : متلازمة مريم

إسم المؤلف : إيمان سعيد شافعي

رقم الإيداع بدار الكتب : 2021/8278

ISBN : 978-977-85982-0-0

• • جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للدار

ولا يجوز نقل او إقتباس أو إختزال أي جزء من الكتاب دون الرجوع إلى الناشر و الحصول على إذن خطي مسبق منه.

•• تنويه: المحتوى الأدبي هو مسئولية الكاتب بالكامل.

الملتقى للنشر والتوزيع: 9 مكرر شارع ترعة الجبل ، برج سكر ، حدائق القبة ، القاهرة – مصر.

رئيس مجلس الإدارة :

حسام عزام

Moltaqapublishing@gmail.com

Tel: +20 109 901 6240

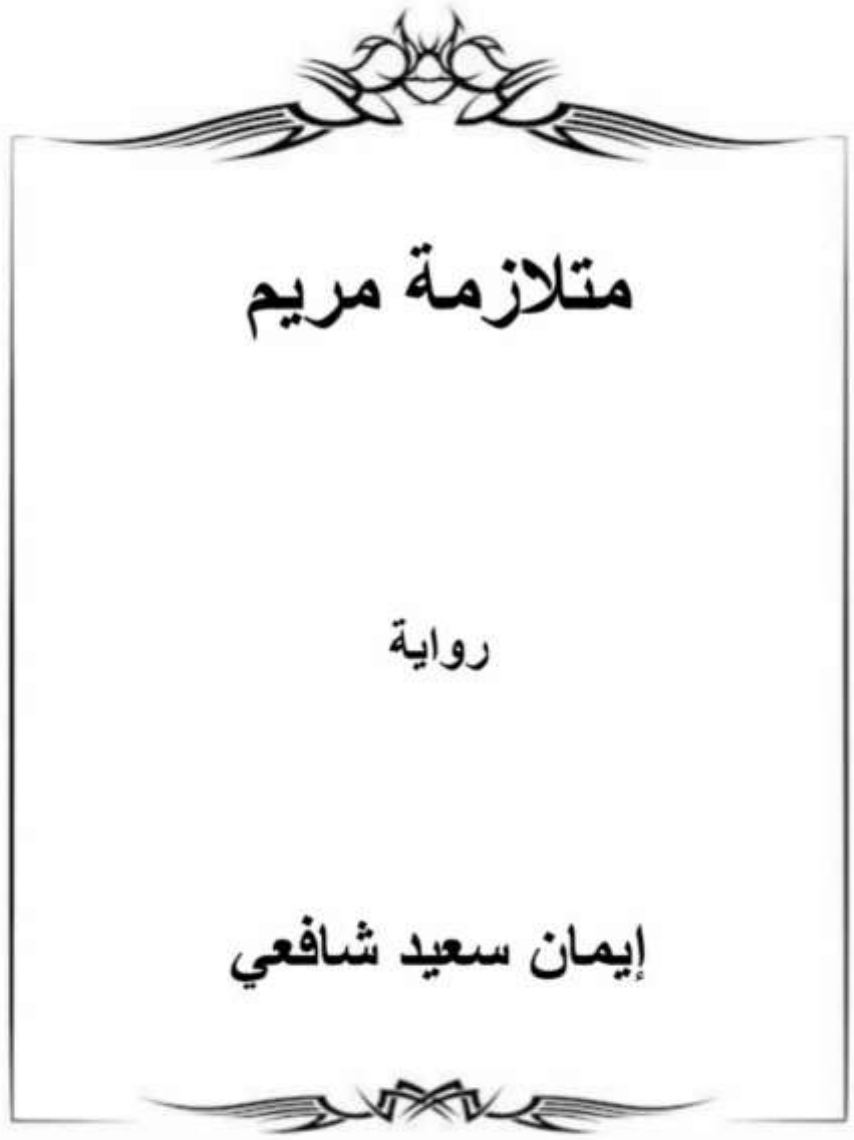
متلازمة مريم
رواية
إيمان سعيد شافعي

القصة الفائزة في

مسابقة الملتقى للرواية

في الدورة الأولى

أنت خائن يا جبراان .... تريد أن تحبسني لماذا ؟! ....عذبتني لماذا ؟! .....متعبة أنا ...عطشى ..... هاتوا لي مريم أنا أريد مريم. ... هذا الرجل لو رأيته ثانية سأقتله .... لا أريد سلاحا في المنزل ....خبئوا الأكل .... يرحمك الله يا نصار....نصار...نصار..... اتركوني لحالية.....أريد العودة إلى البيت

صوت صراخها يملأ المكان ويشق صمت الحجرة .

-الأم :إنقذها يا إلهي وسوف أصلي وأشكرك طوال عمري إنها أملي في الحياة لن أرتكب أي ذنوب وسأعطي الفقراء والمحتاجين نصف ما أملك من ذهب .

-الأب : يا ربي إنها ثروتي الحقيقية لا يمكنني أن أتصور أنها ستلحق والدتي ومازالت سنواتها في الحياة تعد على أصبع .

يفتح الطبيب باب الحجرة .

-حالتها الآن مستقرة ويمكنها مغادرة المشفى غدا .

-الأم : ولكن يا دكتور هذه الهلوسات التي أصابتها ؟!

-الطبيب :منذ أن دخلت فرح المستشفى حتى الآن ..فعلنا ما بوسعنا لإنقاذها من الحمى التي هاجمتها بشراسة وهذا كل ما يمكننا فعله .

-الأب : نعم لقد أنقذتم حياة ابنتي .. لكنها ليست بخير أبدا .

-الطبيب : هي مجرد هلاوس نتيجة للارتفاع الشديد في درجة حرارتها بشكل لم أره من قبل خلال رحلتي الطبية .

-ستحتاج لمراقبة ومتابعة دقيقة منكم في الأيام القادمة هذا هو كل ما في الأمر.

-الأم : لن أغمض عيني حتى تنكشف هذه الغمامة عنها .

-الأب: الحمد لله على ما أخذ والحمد لله على ما منح .

في الصباح

-الطبيب :صباح الخير يا فرح.

-فرح : تشيح عنه بوجهها

-الطبيب :أعلم جيدا أن الدواء الذي تتناولينه مر ولكن معي الآن الشيكولاتة التي تحبينها،

يمد الطبيب يده إلى فرح بينما لا تحرك هي ساكنا

-الأم : فرح ..البنت المؤدبة لا تفعل ذلك، خذيها وقولي شكرا.. هذا هو النوع الذي تفضلينه سأل عنه الطبيب وأحضره لكِ خصيصا .

-فرح بحدة: أنا أخبرتك أنني لست فرح؟!

-الأم تنظر لها بشفقة ودموعها تنساب : أنت حبيبتي وفرحة عمري .

-فرح : أنا علياء .

-الأب : حبيبتي سنذهب الآن إلى بيتنا وهناك ستتذكري كل شئ

-الطبيب ينظر للطفلة بدهشة ويضع يده على خدها : سأفتقدك صغيرتي

-فرح تزيح يده باستهتار : أنا ابني محمود أكبر منك !

الفصل الأول

-صباح الخير شهد .

-أهلا نورا.

-لا هذه حالة لا يمكن السكوت حيالها .

-عن أي حالة تتكلمين ؟!

-حالتك ألم تنظري في المرآة قبل خروجك اليوم ؟

-لا ..استيقظت على مكالمة هاتفية أربكتني تماما.

-من يا ترى ؟ دعيني أخمن ، عمر أليس كذلك ؟

-كنت متأكدة من سماجتك .

-حيث أنها وصلت لسماجتي ..سأخرج وأتركك وحدك .

-لا تخرجي أنا في حاجة إليك .

-إذن لن أتخلى عنك فأنت أعز صديقاتي ..ودائما أنا الأكرم .

-نورا كفاكِ مزاحا ، المكالمة كانت من دكتور حسام وكلفني بحالة واخترتك معي .

-دكتور حسام كلفكِ أنتِ بدراسة حالة !

لديك كل الحق في ارتباكك ولكن أنا تخصصي مختلف عنك فكيف سنعمل معا ؟

-إنها فرصتي يا نورا لأثبت ذاتي والحالة تحتاج لعلم النفس وعلم الاجتماع معا ولما ترك لي دكتور حسام فرصة الاختيار فكنتِ أنتِ.

-ما طبيعة الحالة؟

-طفلة عمرها ثمان سنوات تعيش حالة هوس وتشتت نتيجة وضع نفسي تعيشه ..هذا هو تحليلي المبدئي .

-في خلال دراستي للماجستير مرت عليّ بعض من هذه الحالات وفعلا الأوضاع الاجتماعية السيئة تدمر نفسية الأطفال ؟

-حقيقة .. ولكن فرح ياسين ليست كالحالات التي أجريت عليها دراساتك.

-وما الفرق كلهم أطفال غيرت طبيعتهم البيئة ؟

-هذا هو ملف فرح إقرأيه وموعدنا غدا في العاشرة صباحا .. الزمالك عمارة 105 شقة 55 .

ما رأيك بالعنوان ؟

-أتظنين أن العقد النفسية يصنعها الفقر ؟! إنما أعقدها لا نراها إلا مع الأغنياء ، بالتأكيد أمها تسهر طوال الليل خارج المنزل وأبيها مسافر .

شهد تشير للملف : أقرأي يا فيلسوفة وأراكِ غدا.

أمضيت النهار أقلب في الأوراق ساعات الليل حتى تنقضي مضطجعة على فراش من نزق، أمشط ذيول خيول أحلامي .

- العمارة راقية جدا مدخلها كالقصور .

- حقيقي نجفة بهذا الحجم في مدخل عمارة !

- لديك حق عندما أصررت أن أقرأ الملف البنت وحيدة أبويها .

- نعم ومدللة ومتفردة .

- بدراستي المبدئية للحالة..الوحدة أصابتهابنوع من التوحد الذاتي وبدأت تتخيل أمور بعينها حتى آمنت بصدقها .

- كل تحليلاتك تخضع للتكهنات ولا يمكن الجزم بها وأول درس تلقناه في علم النفس التحليلي.

نورا مقاطعة : لا نتوقع قبل أن نتعامل مع الحالة , لكن هذا يا شهد لا يمنع من بعض التوقعات لتسهيل الدراسة .

شهد مبتسمة : هذه هي أطول رحلة قضيتها بمصعد .

وضعت نورا يدها على جرس الباب فقابلتنا خادمة فلبينية وأشارت لنا ،سرنا خلفها نتفقد الأثاث الوثير لفيلا آل ياسين ،التي اكتشفنا بعد أن وصلنا للمكان المخصص للضيوف ،أنها ليست مجرد شقة في عمارة ..إنها طراز معماري متفرد بذوق فني غاية في الدقة ،مكونة من طابقين لم يسمح لنا إلا بمشاهدة الدور الأول،ولكن إن تركنا لخيالنا العنان ربما استطعنا

رسم ماكيت للدور الثاني على طريقة رسامي الديكور، فهذا الجمال المحيط بنا يحرض على الإبداع .

-إنها المرة الأولى التي أعرف فيها كم هو الأبيض يصلح وحده ليكون سيد الموقف !

-نعم لقد غيرت نظرتي للبالطو الذي يلازمني في المشفى .

نورا مبتسمة : لا ..عليك أن تغيري نظرتك للمشفى نفسه .

-أشعر بالبرد .

- إنها الفجوة الطبقية التي أصابتك عزيزتي ببرودتها .

- نورا كفاكي مزاحا المكان المحيط أشبه بكرة ثلج كبيرة .

تدخل والدة فرح مرتدية بدلة أنيقة بلون الورد فتقطع حديثنا، نهم بالوقوف وبينما تتشابك أيدينا بالسلام ألمح في عينيها نظرة مخضبة بحزن دفين .

- مرحبا ..أنا نسرين والدة فرح .

- كلفنا دكتور حسام أنا ونورا بمتابعة حالة ابنتك ونحن الآن هنا لنسمع منك كل ما ترين أنه بإمكانه أن يساعدنا .

- أنا كتبت كل ما أعرفه في الملف الذي أرسلته لحسام باعتباره صديق العائلة ولولا ذلك لما استعنت به .

- أعرف تماما حساسية الموقف وحرصك على سرية حالة فرح ولكننا الأن مكلفتين بمتابعة حالتها .

- ليست كل الكلمات تكتب .

- ولا كل السطور تفهم .

- عملنا أن نقرأ ما بين السطور فرجاء تحدثي بلا تردد .

- فرح بنت شديدة الذكاء ولقد كان هذا جليا في مراحل نموها ،وتأكد ظني فيها عندما أصبح عمرها أربع سنوات، فحفظت عواصم دول العالم وجدول الضرب وعندما أكملت السادسة كانت تحول قصص الأطفال التي تقصها عليها جدتها لكتب إلكترونية، حتى يتمكن أكبر عدد من أصدقائها في مشاركتها متعة مطالعتها معها .

نورا تضرب كف على كف :ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

ـ كانت متعلقة بجدتها لدرجة كبيرة .

نسرين تنطق كلماتها بينما تتنهد بصوت مسموع وتتجمع في مآقيها الدموع :أحبتها حتى عاشتها أكثر مما عاشت نفسها .

استشعرت من عيون نورا أن كلمات نسرين أربكتها ،حتى أن كوب العصير الذي كانت تتناوله باستمتاع ارتعش فجأة بيديها ،لكنها آثرت الصمت احتراما لنبرة الأسى في صوت نسرين .

ـ كانت تقول لأصدقائها :إن حكايات جدتي هي آخر ما يمكن سماعه حين تصمت أبدا .

ـ هل كانت فرح انطوائية ؟

ـ على العكس تماما .. صوت ضحكتها كلما زارنا ضيف كانت تملأ أرجاء المكان .

ـ ماذا عن علاقتها بمن هم في مثل عمرها ؟

ـ بيتي كان مدرسة مسائية وفرح كانت سيادة المديرة حتى كان ذات مساء .

أجهشت نسرين بالبكاء بشكل مفاجئ على الرغم من ظلال دموعها التي كانت تراقص فراستي ، كنت أحسبها ستصمد لوقت أطول .

ـ عذرا..لا أستطيع استكمال الحديث .

ـ لا عليك يمكننا استكماله في وقت لاحق .

ـأو من خلال حجرة فرح إذا سمحتِ لنا بالدخول .

سارت أمامنا نسرين بثبات لا يتناسب مع دموعها المتساقطة لتوها وصعدنا معها إلى الدور الثاني ،وصدقت مخيلتي منذ ولجته حتى دخلنا حجرة العجائب .

فتح باب الغرفة

بنت شعرها كستنائي طويل بيضاء ترتدي فستانا بلون زهرة البنفسج بالرغم من حجرتها المليئة بالألعاب كمدينة ديزني ،إلا أنها اختارت الجلوس على طاولة أمامها ورقة بيضاء تدندن وترسم .

ركزت نورا على الحجرة ومحتوياتها فهذه التفاصيل مفيدة بالنسبة لتخصصها ، أما أنا شدتني فرح بمظهرها الملائكي ،حاولت التلصص على ورقتها البيضاء لأعرف بأي خطوط شكلتها .

- مرحبا ..سنو وايت .

فرح بينما تكمل رسمتها ولا تكترث لأحد :أهلا .

-حبيبتي شهد ونورا صديقاتي يريدون التعرف عليكِ .

-فرح بابتسامة : أنا برسم .. مشغولة .

- يبدو على نورا الدهشة : الحجرة كلها خضراء .

- فرح طلبت بعد خروجها من المستشفى تغيير لون الحجرة للون الأخضر واختارت نوع الدهان كما ترونه على الحائط .

كان الدهان مثيرا للغرابة وكأنه قطيفة خضراء لأرض حديقة.

- لكن الأمر لم يقتصر على الدهان السجاد الشراشف كل ما في حجرتها يتبع هذا اللون .

- بالرغم من صعوبة تحويل كل شئ في الغرفة للون واحد إلا أنه كان يجب تلبية طلبها حتى أن كثيرا من ألعابها تحمل مجسمات (النينجا ترتلز) لأنها من الألعاب التي تحمل هذا اللون دون غيره .

- بالرغم أنها لا تناسبها .

فرح تنظر لألعاب النينجا المحيطة بها بابتسامة سخرية بينما تنظر لها نسرين بشفقة :هي لم تعد تهتم بألعابها .

-هذا يعني أن الأخضر لونك المفضل ؟

فرح تنظر لشهد باهتمام : نعم كلما رأيته تذكرت القرية.

-ألهذا الحد تحبين الريف ؟

فرح تشرد بعينيها : جداً .

-تطلب دوما ذلك وآخذها أنا ووالدها لتتنزه في الحدائق.

- طبيعي..الرسامات الجميلات مثلك يرون في الطبيعة مكانا جميلا للرسم.

ـ ليس هذا هو السبب .

ـ ما السبب إذن ؟!

ـ بحدة: أنا من الريف ،ولدت وتربيت هناك .

ـ فرح منذ ولادتها حتى الآن لم تر غير المدينة أنا ووالدها ولدنا في القاهرة .

اقتربت من دفتر الرسم

ـهل يمكنني الإطلاع عليه ؟ ،نورا صديقتي تستعد لمعرض للرسم وإذ وجدت رسوماتك مميزة سوف نختار منها للعرض .

تبتسم فرح لي ابتسامة تكشف أسنانها اللؤلؤية الصغيرة :حقيقي ؟

ـنعم .

تناولت الدفتر ، رسوماتها عن الطبيعة خلابة ودقيقة ،استوقفتني رسمة لامرأة كبيرة في السن بجانبها رجل مسن يمسك عصاة خشبية وحولهم ثلاثة شبان وفتاة وأطفال صغار .

ـ ما هذا يا فرح ؟

فرح أشارت لي أن اقترب منها أكثر : إنهم عائلتي .

شعرت بدقات قلبي تتصارع في عنف : وأين أنتِ منهم؟

أشارت فرح للمرأة العجوز وقالت :أنا .

خشيت أن تفضحني نظرة عيني ،فأشحت وجهي عنها وصدري يقفز بين يدي صعودا أنظر إلى نورا بشفقة محذرة أن تبدي انفعالها،كي لا تربك فرح.. لتكمل حديثها .

ـ لكنك جميلة وصغيرة وهذه المرأة كبيرة !

وضعت يدي على طفلة صغيرة في الصورة وقلت

فرح تضع أصبعها على صورة العجوز وبعصبية : لا أنا تلك المرأة ، البنت الصغيرة حفيدتي هند.

أشرت للمرأة العجوز : نعم فهمت ، وما اسم هذه ؟

قالت باعتزاز : أنا علياء درويش .

تدخلت نورا قائلة :ومن باقي أفراد الصورة ؟

بابتسامة : إجلسي سأعرفك على أفراد عائلتي .

نورا بعيون تلمع بالفضول :يسعدني ذلك .

فرح تشير للشباب : الكبير كريم وجمال وسليم والبنت مريم .

لمحت على خد مريم في الصورة دمعة

- ولماذا تبكي مريم ؟

- مات زوجها في حادثة سيارة .

نورا مجارية فرح : آه وباقي الأحفاد بالتأكيد لكريم وسليم وجمال .

فرح : سعد وعلاء وعلي وعبد الرحمن و هند وزهرة

- الرجل العجوز ما اسمه ؟

- جبران .

- من هو جبران ؟

أشاحت فرح وجهها عنا

-من جبران ؟

وضعت فرح يديها على وجهها وبصوت مرتفع بعض الشئ : جبران زوجي .

تصرخ بحدة : أكرهه أكرهه وسقطت من عينها دمعة .

ذهبت إلى سريرها ونظرت إلى نسرين قائلة : تفضلوا أنا سأنام .

وبينما نستعد للخروج من حجرتها تناولت إحدى عرائسها وضعتها على السرير ،نظرت لها وهي تمسد شعر العروسة بمشط صغير وتدندن (أهو دا اللي صار ..ودا اللي كان ..ملكش حق تلوم عليا(

تتقاذفني الأسئلة ،ولكن بمجرد خروجنا من الحجرة نظرت لنسرين قائلة :

هل تسمعين هذا اللون من الغناء ؟

- أنا لا أعرف لأي مطرب أو مطربة تلك الأغنية كثيرا ما تغني فرح أغاني لم أسمعها إلا منها .

- تغني الأغنية وتحفظها عن ظهر قلب باللحن والكلمة .

ـ تغني سيد درويش وكأنها عاشته .

نسرين بابتسامة تخالط بين الحسرة والسخرية : سيد درويش ؟!

ـ لا تعرفينه مثلي أستاذة نسرين .

نسرين مبتسمة : الحقيقة أنا لا أسمع أغاني عربية سوى الحديث منها.

نورا ضاحكة : حتى وإن كنتِ تسمعين فلن تعرفيه .

ـ أنا أتابع حفلات الموسيقى العربية وأحب هذا النوع من الأغاني.

ـ وماذا عن والد فرح ؟

تضحك نسرين : مثلي تماما .

وصلنا لمنتصف الصالة ، ودعتنا نسرين بنصف ابتسامة

ـ سأنتظركما غدا.

وأشارت للخادمة فصاحبتنا حتى وصلنا إلى الباب

نظرت لنورا بينما أدندن أغنية فرح

طوال الطريق تثرثر نورا عن فرح وما قالته ونتيجة ما استخلصته من تلك المقابلة وهو أن فرح تعاني من هلوسة بعد أن أصابتها الحمى عقب وفاة جدتها .

وأنا شاردة لا أنطق .

دخلت حجرتي وضعت أمامي ورقة الرسم التي رسمت عليها فرح عائلة علياء درويش..رسمة دقيقة جدا وكأنها صورة فوتوغرافية تنطق بالحياة جلست أمامها أدون ملاحظاتي على كل فرد من أفراد العائلة .

قطع عمر ما أفعله برنة الهاتف .

ـ أيعقل هذا يا شهد ؟!

ـ حقيقي أنا لا أعرف ماذا أقول .

ـ بالتأكيد لا أتوقع أن تعتذري مثلا .

ـ أنا لا أجيد الاعتذار ،ولم أفعل ما يستوجب ذلك .

ـ أعرف ذلك تماما ولم أطلبه منك أبدا .

ـ لكنك أنت أيضا انشغلت عني حتى رسائلك كانت قصيرة ومقتضبة .

ـ بالطبع أفضل وسيلة للدفاع الهجوم ،شهد عندما تشعرين أنكِ تفتقدينني لا تترددي في الاتصال أنا دوما في انتظارك .

أغلقت الهاتف وأنا أتساءل ما الخطأ الذي ارتكبته لأستحق مكالمة بهذا القدر من الجفاء ؟!،ربما لأنني مقلة في اتصالاتي به منذ أسبوع ،وربما لأنه كلما هاتفني أسرعت في إنهاء الحوار الذي يقطع استرسالي في التفكير ، أنا أعاني من توتر منذ اتصل بي دكتورحسام واستلمت ملف فرح للمتابعة ،لكن ليس ذنبي أن يتزامن اتصاله مع أول يوم لخطبتي لعمر .

عاودت جلستي مع رسمة علياء ،حمّلتُ أغنية سيد درويش على هاتفي المحمول فلم تكن ضمن قائمة الأغاني التي أسمعها ،والحقيقة كلمات الأغنية قد ألهمتني كثيرا..بنقطة البداية مع فرح ، فدوما البدايات صعبة ومراوغة وعنما نصل إليها نشعر بالراحة بعض الشئ .

في الصباح لم أكتف بغسل وجهي بالماء ، لكنني وقفت في المرآة لأضع بعض الرتوش على وجهي وقضيت وقتا أطول في اختيار ملابسي .

ـ أمسكي الخشب يا شهد .

ـلماذا ؟

ـ مكياج وبدلة أنيقة وتناسق في الألوان .

ـ يا نورا المكان يفرض علينا ما يتوجب ارتداءه .

ـ ربما ، لكنكِ لستِ مثلنا ..اعترفي ماذا حدث ؟

ـلا تتخابثي أكثر .. نعم أشعر بالراحة .

ـ هكذا أطمأن قلبي ..أنا عكسك تماما .

كنت أعرف أن نورا انتقل إليها حالة القلق التي أصابتني منذ أسبوع، فالحيرة بئر عميق يجذبنا دوما إلى الأسفل ولا ثمّة خروج إلا بحبل نشد طرفه بقوة .

فتحت لنا نسرين بابتسامة ودودة يبدو أنها تعوّل علينا كثيراً.

وفي الممر المؤدي لحجرة فرح نظرت لعيني باستغاثة

نسرين : كان بإمكاني أنا ووالدها علاجها في أكبر المصحات أو استحضار أطباء هنا لمتابعتها أول بأول ، لكني أخشى أن يعرف أحد من العائلة أمرها فتكتسب البنت سمعة سيئة ،سيقول الجميع أنها مجنونة حسام مصدر ثقة بالنسبة لي وأنتم أصبحتم كذلك الآن.

استدرت لها ونظرت إلى عينيها : لن نخذلك .

-أحاديثنا هنا لن تخرج من الجدران ..هذا هو شرف مهنتنا .

نسرين ردت بابتسامة .

كانت فرح هادئة تتناول إفطارها حتى اقتحمت نورا صمتها

-حبيبتي ألن تدعوننا لمشاركتك ؟

نسرين ضاحكة وتشير للخادمة

قاطعتها : نورا تمزح لقد فطرنا والحمد لله عندما تعرفي نورا جيدا ستعتادين ذلك.

-هذا الإفطار لا يمكنني دعوتكما عليه لكن عندما تأخذاني إلى قريتي ستأكلان من يدي فطور مشرف .

كانت فرح تأكل مربة وكيك مع كوب من اللبن .

وضعت أمام فرح رسمتها فنظرت لي نورا مبتسمة .

أشرت إلى علياء في الصورة وسألت : فرح متى ولدت ؟

- 1945 حينما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ,جئت أنا إلى الدنيا كان العالم كله يستقبل الحياة بشكل جديد وكفر البطيخ كما هو .

- من أي قرية في مركز كفر البطيخ ؟

نظرت لنورا باستغراب،اهتمامها يشي بأنها بدأت تتعامل مع كلام فرح بشئ من الجدية .

-قرية الهواشم .

-وماذا تعرفين عن هذه الحرب ؟

- حكى لي والدي عنها كثيرا .

كانت تشغله فهي أهم حدث في العالم كما قال،لكني لا أتذكر مما قال إلا تلك القنبلة التي ضربت هيروشيما وناجازاكي وكانت الباب لدخول الأمم المتحدة في حياة الشعوب كلها .

- يبدو أن والد علياء لم يكن مجرد قروي بسيط !

- كان من القلائل في قريتنا الذين يقرأون الجريدة , أسمع أحاديثا متناثرة عن كل ما دار في العالم من أحداث بعدها ولكن لم يغير أي من هذه الأحداث حال أهل القرية، التحولات كلها فاجأتنا بلا حروب .

قاطعتها: الحرب العالمية الثانية هي آخر الحروب العالمية .

مبتسمة :نعم آخر الحروب المعلنة .

نظرت لنورا بتوجس ،ويبدو أن نورا لا تدرك تماما ما تعنيه نظرتي..لا تدهشني الآن فكرة أن طفلة في هذا العمر تدير حديثا عن أشياء لم ترها وكأنها عاشتها ،يدهشني أكثر عمق رؤية من نقلت عنهم هذا الحديث .

-ماذا كان يعمل والد علياء؟

-كان مزارعا في مزارع القطن حتى توقفت التجارة وتعطلت الملاحة وانقطعت عنا واردات الأثاث والأحذية الأوروبية أثناء الحرب العالمية الأولى وعندما أنشئ مصنع الحرير في عام 1920 كان أبي من أنشط العاملين به حتى أصبح مديرا له ، كنت أشعر بالفخر وأنا أتحدث إليه .

أشرت إلى ابن علياء الكبير كريم : ماذاعن كريم كان يغزل الحريرمثل جده ؟

ضحكت فرح وأغمضت عينيها

-كانت ولادته صعبة ، باغتني الطلق وأنا أمام الفرن أخبز مع والدة زوجي غافلتها ونحن نعجن وصنعت ثقبا فى الرغيف كنت أشتهي بيضة ورغيف العيش كان في منتصف الطريق للتسوية الكاملة ،وضعت قطعة الزبد في الثقب وفتحت البيضة وأخرجت رغيفي وحده ، تناولته بشهية حتى فاجأني كريم واحترق الخبز كله من يومها وكل شئ يفعله كريم يفاجئني ويخرب كل ما حوله .

-بالتأكيد والدة زوجك أساءت الظن بكِ ؟

ضحكت فرح : لم أشاركها العجين حتى ماتت ، عاقبتني بعنف ،هكذا تربينا فلم يكن ثمة فرصة للخطأ .

شردت في كلماتها التي جسدت أمامي لوحة لمشهد عايشته بكل جوارحي،فأكاد أشم رائحة الخبز حتى استفقت على صوت فرح تكمل حديثها.

كريم تعلم مني حب اليرقات وغزل الحرير، لكن الحال تغير كثيرا آنذاك بعدما انتهى عصر الملكية وقامت الثوررة وتولى الضباط الأحرار حكم مصر فأصبحت صناعة الأثاث مصدر أكبر للربح هذا غير أن والده لم يكن ليتركه ليمتهن مهنة أبي أبدا ، كان كريم يجيد تعشيق أغصان الشجر على شكل أرابيسك عندما لاحظ والده ذلك أرسله إلى عمه في المدينة وهناك بدأ كريم رحلته .

شعرت بفرح تأخذنا من أيدينا إلى حيث كان كريم وعلياء قدرتها كانت فائقة على الحكي ،قصت لنا ما كان بالصوت والصورة .

لن أنسى اليوم الأول الذي ترك فيه كريم الدار مسافرا لعمه وقفت أنظر له برضى وحب : صرتَ رجلا .

كريم : دموعك غالية يا أمي .

- إنها المرة الأولى التي تترك فيها الدار .

- بيت أعمامي ليس ببعيد .

- تعلم جيدا في الورشة ولا تهمل دروسك أيضا .

بحركة عسكرية : تمام يا فندم .

- يا رب حينما تكبر تصبح ضابطا كجمال عبد الناصر.

- حاذري أن يسمعك جدي قالها وهو يضحك.

-لا تخف إنه خرج ليشتري حصان المولد لجمال .

- أعرف أنه خرج كي لا يودعني .

- أنا مثله تماما ،لكن لا يمكنك أن تسافر بلا قُبلة مني.

قبلت كريم ووضعت ما خبزته من عيش وبلاص المش والجبن القريش ولم أنس ذبح مجموعة من البط والفروج كزيارة لبيت عمه رضا .

- جعل الله لك في كل خطوة سلامة يا ابن بطني .

تابعته حتى غاب ظله عن البيت واحتل مكانا أكبر في قلبي .

عاد جمال فرحا مشيرا إلى بطنه :أشعر بالجوع .

-سأقطع الطماطم وأخلطها بالجبن انتظر قليلاَ.

- لا ..أريد عسلا وفطيراً .

بعصبية : لا ترهقني بطلباتك ..تناول ما يوضع أمامك من طعام .

وقف أبي ينظر لي بشفقة : سافر كريم ؟

- نعم .

ضمني والدي ومسح دمعة لم يرها غيره سالت على قلبي فالهبته كقرن الفلفل الذي كنت أقطعه على طبق الجبن كل صباح .

- أريد الخبز المرحرح .

- كل ما تريده وضعته على الطبلية سأذهب لأطعم الطيور.

- علياء.. لا تصعدي للسطح الآن .

- أبي أنا بخير .

درويش : أعرف.. فقط أريد أن تفتحي مع جمال الأكياس التي اشتريناها من السوق .

فتحت الأكياس مع أبي .

-سنارة صيد ، ملابس جديدة وحصان السكر .

أخذ جمال الحصان وقطع سيفه وأكله .

- لم يأت المولد بعد هكذا أفسدته .

- أتركيه يأكله وسأشتري له حصان آخر

- أبي أريد أن أفهم لماذا لم تكن تدللنا كما تدلل جمال وكريم ؟

- أعز الولد ولد الولد .

- أغار منهم أنا .

- لم تفتحي الكيس الثاني بعد .

ـ قماشة جلابية مزركشة بكرات برتقالية وحمراء أحب هذا اللون سأضع على الأكمام دانتيل أخضر وذيلها سأحيكه بالكورنيش ، وسأصنع منها شال شعر أخضر ، أبي ربنا ما يحرمنا منك .

فتناول الكيس الثالث وناولني إياه فتحته .

ـ عروسة المولد لي أنا .

ـ ضعيها أمامك وعندما ينقضي المولد، ضعيها في الماء حتى تذوب وأضيفي إليها بعض النشا وأصنعي منها المهلبية التي كانت تصنعها أمك

وكليها وحدك ، أعرف أنك ستطعمين منها الجميع ولكنها لك أنت فقط .

ـ سأغار أنا يا جدي هكذا .

ـ لا أنت صياد المستقبل ولن أعلّم أحدا فنون الصيد غيرك .

ـ أبي أنا .

ـ أعرف ما ستقولين ..الأعمار بيد الله ما حدث لسعيد كان قدره .

نظرت لجمال بخوف وحيرة .

انقضى اليوم وأنا على وسادتي أفكر في كريم الذي سينام بعيدا عني الليلة كيف سأطمئن على غطائه وأنا التي أقوم في الليل أكثر من مرة لأحكم الغطاء عليه فهو دائم العراك مع الوسائد والفرش وما مصير جمال..الصيد لا يجلب إلا الفقر،قلبي سيقفز كل يوم خلفه ،لقد كنت أخاف على سعيد كلما خرج مع أبي للصيد كنت أحلم دوما أنه نائما على سطح النهر وكلما قصصت الحلم على أبي ضحك قائلا :النيل لا يبتلع أبناءه ، ولكنه ابتلع سعيد الذي لم يبتلعه البحر الغادر بطبعه، تساءلت :تري ألا تأتينا الفاجعة إلا من الأشياء التي منحناها ثقة كاملة ؟!

جهزت الفطور

ـ سأخذ جمال معي .

ـ المهم أن تعود به .

جلست أمامي ماكينة الخياطة وبيدي قطعة القماش لحياكتها

دخلت علي جارتي صباح :صباحك أحلى من العسل علياء ، الوابور تعطل وأنا أسوي المحشي ، جئت لآخذ من عندك مقداراً من الجاز .

ـ الجاز شحيح يا صباح ، تعالي أضعها لك في فرن الخبز ، لتوي أطفأته ستسويه حرارة الفرن .

ـلا أحب رائحة الفرن في المحشي ،إن كنت أريد تسوية الأرز المعمّر باللبن كان هذا ممكنا يعطي له رائحة .

ـ معك حق فأنا أعرف كيف يصنع الفخار لذلك الفرن البلدي هو أجمل ما يمكنه تسوية الأطعمة التي بداخله .

ـ شاطرة يا علياء لا يخفى عليك شيء ولا بنات المدارس ،أصرت أمي أن أدخل الكتاب ومع ذلك لا أعرف نصف ما تعرفينه .

ـ هذا من حظك أنك بنت الحاج درويش .

ـ هل صحيح ما سمعت أمس ؟ دعا عمدة أولاد حمام الزعيم جمال عبد الناصر للغداء وأطعموه بملعقة من ذهب ؟!

ضحكت صباح فأخواتها وخالتها من هذه القرية المجاورة لنا :

كنت هناك ولم يأكل بملعقة من ذهب كما أشيع ،ولكنه قبل الدعوة بعد أن سأل العمدة عن محمد ضياء الذي تولى عضوية مجلس الشعب .

ـ هو صهركم ومن القلائل الذين تعلموا في بلدتكم حتى صار محاميا .

ـ ولكنه ليس مشهورا وكلما سأله أحد عن سر نجاحه في الانتخابات يقول نسبي للعمدة فظن الناس أن العمدة استغل سلطته ليفرض على أهل البلد انتخابه بالقوة .

ـ وهل لامه الزعيم على ذلك ؟

ـ قبل الزيارة أرسل الرئيس ليتحرى من الأمر وتأكد من خطأ ما سمعه من روايات، وأن الناس تحب العمدة وانتخابهم لضياء كان برضاهم .

ـ الإنسان يجب عليه ألا يصدق كل ما يسمعه ، هم في القاهرة لا يعرفون الكثير عما يدور هنا ويرون الأمور كأبي قردان .

ضاحكة : ينقبون عن الدود في الأرض هذا فقط ما يبحثون عنه .

- وإن كان أبي قردان يفيد الأرض بما يفعله .

تنظر صباح لقطعة القماش الموضوعة بجانب الميكنة: أمعقول قطعة قماش لينوه هنا عم!

- وما الغريب جهازي كان من الكتان والحرير؟!

- نعم أعلم وأعرف أن والدك اشترى لك ولأخوتك أقمشة لم ترتدها بنت في البلد كلها حتى في دمياط العاصمة، ولكن الآن شحت الأقمشة .

علياء: نعم بل كل شئ شح .

- أصبحنا نرتدي الكستور في الشتاء والبفتا في الصيف ،هذا إن وجدنا القماش .

ضحكت :هكذا سيأخذنا الحديث، تعالي معي سأوقد الكانون لتأكلي أطيب محشي يا صباح .

- يجب أن تتذوقي ما صنعته يداي ، بعد التسوية خذي من الإناء طبق محشي الكرنب الذي أعرف أن جمال يحبه .

ابتسمت لأداري ما يجول بخاطري، فأنا لا أعرف إن كان جمال عائدا اليوم أم لا فرحلات الصيد تستغرق أياما تختلف عن بعضها في كل رحلة.

الحجارة معدة من الجهتين في حجرة الفرن،وضعت قطع الخشب بينهما فتحت باجور الجاز من الأسفل والذي كان ما به شحيح جدا،ونقط قطرات منه على الخشب لأحدد مساحة اشتعال النار كي لا تسرح في المكان ،وضعت قاعدة الإناء على الحجرين واحتل الإناء الكبير المسافة الفاصلة بينهما والتي اشتعلت أسفلها النار بهدوء .

انقضى النهار وجاء الليل ، لا مكان إلا للظلام داخلي وحولي، قضيت يومين لا فرق عندي بين النهار والليل سوى آلام بطني التي كانت تنبض بمولود لا أعرف بعد إن كان من الأجدر به ألا يخرج ليحملني مزيدا من القلق عليه في أيام صعبة كتلك التي نعيشها .

جلست أمام الفرن وضعت أمامي برام الفخار خُلط فيه الأرز باللبن ووضعت على قمته قشدة ووضعتهما في الفرن وقبل أن ينضج عاد جمال وأبي تنفست وكأنني لم أكن أتنفس طوال الأيام الماضية بينما دخل أبي مقاطعا أفكاري .

- سيحمل لكِ جمال السمك من العربة .

- لا سأخرج أنا لإحضاره .

جمال: أمي ..الرجل بالخارج ينتظر على حماره ،هذا وقت غداء والطريق طويل ،لديك طعام له أم أعطيه حقه وينصرف ؟

نظرت لجمال بفرح: لدي طبعا .

دفست في البرام الفرخة التي كنت قد سويتها للغداء ولففت الطعام في منديل قماش كبير وحمله جمال للرجل.

حمل جمال المشنة ووضعها أمامي

سمك البوري على القمة وكثير من السردين .

نظرت لأبي ضاحكة : الشانشولا .

-مبتسما : نعم .

- لا تعرفي يا أمي ماذا رأيت هناك سردين كثير يملأ شباك الصيادين وكأنه البحر تحولت رماله لسمك السردين .

- إنه موسم السردين يا جمال فللسمك مواسم .

- حقا قال لي الريس علي شيخ الصيادين في الشانشولا أن السردين يمر بدمياط أثناء هجرته في هذا الوقت من كل عام ، جدي هل هناك مواسم لهجرة الإنسان أيضا ؟

- عندما يستحيل العيش على الشط .. فليبحر .

- جمال .. بمجرد أن ركبت المركب تسأل عن الهجرة ! ،نحن لا نخرج من أوطاننا إلا على القبر .

نظر لي جمال غير مقتنع .

- رأيت في رأس البر أعجوبة ..يرتطم النيل الصامت بالحر الهائج على الصخر.

علياء : اللسان يا جمال زرته مع جدك ذات مرة ومثلك تعجبت ،لقاء بين العذب والمالح كنت أتمنى أن اغترف منه غرفة بيدي لأعرف ما طعم الماء هناك .

- يومها قلت لكِ الأسئلة لم تخلق للبنات !

ـ لكن بعدها ،انتبهت أن جمال جالسا ولايجب أن يعرف ما فعلته ..كيلا يقلده ، فلقد كدت أفقد حياتي وأنا أحاول تذوق الماء من فوق الصخرة .

ضحك أبي متفهما الأمر .

ـبعدها أخذتك من يدك إلى عزبة البرج .

جمال : نعم هذا ما فعله معي جدي ،بعنا ما اصطدناه من السمك في مدينة عزبة البرج هناك وعدنا.

ـوالآن سأستبدل الفروجة بصينية سمك السردين بالبصل والطماطم والفلفل الأخضر وعصير الليمون وسأشوي البوري بالرضا في الفرن .

ـ جوعتني كلماتك .

ـ انتظرني ساعة أحبس جوعك .

ـ تعاقبينه إذن .

ـ أنا !

ـ نعم.. لو لم يكن عقاباً لكنت أطعمتيه أي شئ الآن .

نظرت إلى أبي لائمة ..إلى هذا الحد يفهم كل ما يجول بخاطري ! فلماذا ظلمني!

خلط دقيق الذرة بالسمن والسكر وضعته على النار حتى صار عصيدة وضعتها لجمال حتى أنهي طهو السمك .

مرت الأيام متثاقلة حتى عاد كريم .

بعد أن كدت ألفظ أنفاسي شوقا له ، غمرته حتى امتلأت به .

ـ كل شئ هنا افتقدته .

ـ لا أعتقد وإلا ما كنت عدت بوزن ناقص .

ـ اجتهدت لآكل كما عودتني ولكن لا أحد يطهو مثلك .

ـ السر في الخبز .

ـ حقيقي في دمياط المدينة لا طعم للخبز ولا رائحة له مثل دارنا .

ـهناك أزمة في الطعام .

- حقيقي الدقيق ينفذ بسبب المخابز الآلية والسمن وغيرها من السلع .

- الحمد لله أننا نصنع الزبدة من القشدة .

- لكني تعلمت الكثير هناك حفرت في الخشب ورود وفروع شجر وعلى البروز شكلت نجوما سداسية وقباب .

كنت أنظر لكريم بشغف وهو يحكي

- سأغير كل ما في الدار بعدما أتقاضى أجرا عن عملي ،سأصنع لكي حجرة نوم أرابيسك التي رأيتيها يوما وتمنيتِ مثلها .

لقد كنت قصصت لكريم زيارتي اليتيمة لقصر الملك فاروق،كنت صغيرة وأخذني خالي لأساعده في إعداد الطعام في المطبخ ورأيت من الشباك حجرة نوم من الخشب المعشق يحملها الرجال للدور العلوي تمنيت وقتها لو كانت لي وعندما عدت وقصصت على أبي ما حدث نهرني بشدة : بنتي ليست خادمة

ولم أعد إلى هناك أبداً .

صرخت بعنف : آآآه ، فاجأني المخاض .

- أذهب يا جمال نادي جارتنا صباح

ولدت سعيد هكذا أسميته ونذرته لمصيره ،أرقد في سريري يدخل علي جمال مستبشرا : أمي انتصرنا .

- أتقول الصدق ؟!

أنظر في عين أبي لا شئ يشي بالفرحة

-كذب علينا للمرة الثانية .

- أبي أعلم أنك لا تحبه ولكن ليس لدرجة أن تتهمه بالكذب !

- أنا لا أحب ولا أكره فقط أقرأ ما لا ترينه علياء .

تثائب فرح : أريد أن أنام .

- لا أرجوك يا فرح أريد أن أعرف لماذا قال الحاج درويش هذا الكلام ومن سعيد ليس له وجود في الصورة ؟

ـ بابتسامة : غدا سأكمل.

لم تأت نسرين لوداعنا يبدو أن شيئا ما شغلها وكثيرا من الأسئلة تثور كأنواء البحر في رأسي لم يكن لينتشلني منها إلا هي وحدها .

ـما رأيك يا نورا ؟

ـ أعتقد أنها كانت قريبة من جدتها فحفظت عنها كل ما كان .

ـ فرح حادة الذكاء كما قالت نسرين ولكن هناك تفاصيل لاأصدق أنها لم تخبرها.

ـ ربما رأتها في الأحلام ..ما نراه في المنام نستطيع وصفه وكأنه حقيقة لا تنسي أن المدة التي قضتها محمومة كانت كبيرة .

ـ ولكن الأحلام الناتجة عن ارتفاع درجة الحرارة لا تحفظها الذاكرة .

ـ نحن أمام حالة نادرة فربما هي كان لديها القدرة على ذلك .

سأوقف سيارة لتنقلنا إلى البيت .

في السيارة قفزت في ذهني فكرة وقررت أن أشارك دكتور حسام فيها .

ـ رجاء مشفى القصر العيني أولاً.

ـ ما بك ألست مجهدة ؟

ـ سأرتاح حال رأيت دكتور حسام .

ضاحكة : لا أظن .

قطعت الطريق المؤدي إلى حجرة الدكتور حسام على مسار الشوك للوصول للحقيقة.

ـ كنت أنتظر زيارتك منذ أمس.

ـ لم يكن من الصحيح أن آتي إليك دون أن أرتب أفكاري .

ـ وهل رتبتيها ؟

ـ دكتور أشعر أن هذه الحالة غريبة .

ـ كل الأشياء الصعبة نجدها غريبة .

رويت لدكتور حسام كل ما سمعته من فرح ، فوجدته شاردا في عالم بعيد فهذه هي عادة دكتور حسام يتكلم كقطارة الدواء وبالكاد تخرج منه معلومة .

ـ معك حق هذه البنت لغز محير، المهم كيف قيمتِ الحالة ؟

كنت أخشى ما أفكر فيه ..أخشى إن عرفه دكتور حسام يفصلني من الجامعة أو يتهمني بالجهل فقررت أن أقولها بسرعة .

شهد : تقمص.

نظر إلى الدكتور حسام فزعا : لا يا شهد هذا خطأ سنركز في الغيبيات وننسى العقل والمنطق .. تناسخ أرواح .. حذارِ أن تدخلي في هذا الطريق ..نحن نتحدث في علم .. ويبدو أنك لا تعرفين شيئا عن التقمص لتربطيه بحالة فرح .

نظر إلى المكتبة واختار كتابا ومد لي يده لأتناوله ، كانت يدي مرتعشة ،فلم يتكلم معي دكتور حسام من قبل بلهجة عنيفة أو ينظر إلي نظرة بهذه القسوة .

حسام :هذا الكتاب سيشرح لك أكثر عن التقمص، وأتمنى أن لا تفكري بهذه الطريقة لا في حالة فرح ياسين ولا غيرها من الحالات المشابهة إن قابلتها هذا إن التفكير في تناسخ الأرواح هروب من حقيقة أكبر .

طأطأت رأسي للأسفل :إنها كانت مجرد فكرة وانتهت الآن.

ـيجب أن تنتهي .

خرجت من مكتب دكتور حسام بحمل زائد لحيرة أكبر .

في طريق العودة للمنزل .

ـ عمر يمكنك أن تصحبني للعشاء اليوم

ـ لا أصدق ما أسمع .

ـ عمر لا تتساخف علي .

ـ أبدا صدقيني ولكن لم أكن أتوقع اتصالك ، سأمر عليك في السابعة .

ـ سأنتظرك .

استحممت ربما تتساقط مع قطرات الماء الفكرة العالقة برأسي دونما جدوى .

أنظر إلى صورتي في المرآة متسائلة ..هل يمكن أن أستيقظ ذات صباح لأجدني في جسد امرأة غيري ..أتحسس جسدي لأتأكد أنني هنا ..لكني لا أعشق هذا الجسد كثيرا..فلم أشعر

بأي حميمية تجاهه ..كي أشعر به وأنا لم تتحرك فيّ أي مشاعر حياله ، تخرجت في الثانوية العامة والتحقت بكلية الطب ،كرست كل وقتي للمطالعة والاستذكار حتى وصلت لسنة التخصص ،كان لانفصال أبي عن أمي صدعا منشرخا في نفسي فأردت رأبه ، فتخصصت في الأمراض النفسية ،بدأت التطبيق العملي مع دراسة الماجستير ، ومع كل حالة أشعر أنني أعالج جزءا ما في نفسي ، لكن هذه المرة الأمر يختلف كثيرا ، فأنا نقيضها ،أرفض كل شئ حولي وأمضي قدما فيه ،أحيا في جسد لا يشبه روحي .

أتممت زينتي بشكل مبالغ أريد أن أخفي آثار أفكاري ، وضعت اللون الرمادي على جفوني لون ضبابي كحالتي الليلة وماسكرة سوداء وخط كحل أسود عريض كغجريات حكايات الجدات القديمة ولأخفي آثار الإجهاد على وجهي حددت وجنتي بدرجة من كريم الأساس الغامق وموهتها بفرشاة البودرة الفاتحة لتعطي لوجنتي بروزا وكثافة ولأمنحهما نضارة ظللتهما باللون الوردي كانت بعد فرشاة شفاهي تترقب لون زهرة البنفسج لتكتمل اللوحة .

أميز صوت رنة سيارة عمر جيدا لا أحتاج للتأكد من الشباك.

جلسنا في مطعم منمق يرتاده النساء المتحممة بقوارير العطر والرجال المبتسمين كتماثيل الشمع وربطات العنق والعلب الفاخرة الملفوفة بأشرطة من فضة وذهب حيث كل شئ نظيف أكثر مما يجب ومرتب بما لا يدعو مكانا للفوضى أو للحياة .

-ما أجملك .

ابتسمت في لا مبالاة.

- وما أجمل خجلك .

تساءلت هل ما أشعر به خجل ؟!

-هذه الحمرة التي تراها لون أحمر خدودي .

- حتى حمرة الخجل لا تريدين الاعتراف بها .

- أبدا.. كل ما أريده أن تراني كما أنا ،لا كما تحب أن تراني .

- أيعجبك المكان ؟

- أشعر أنني في علبة هدايا .

- هذا شعور سلبي أم إيجابي ؟

صمتُّ أفكر كيف أجيبه ،فلم أجد أي كلمات معبره، فاكتفيت بابتسامة فبادلني بابتسامة بنفس مساحتها تماما .

- ما رأيك في الطعام هذا المطعم يضم أفضل طهاة في مصر ؟

تناولت طعاما لا أجيد وصفه كما فعلت فرح فهل هذا يعني أنني لا أجيد الوصف ؟أم لا أجيد التذوق ؟ أو ربما شئ ثالث لا أعرفه .

- نعم هذا واضح .

- ماذا كان يشغلك عني ؟

- لا أعرف إن كان ما أقوله سيهمك لتسمعه أم ستعتبره ممل كباقي أحاديثي عن العمل وأنا لا أحب الثرثرة .

- أسمعك .

قصصت له قصة فرح ياسين بإيجاز، فعمل عمر كمهندس يستخلص النتائج بأقل التفاصيل يجعلني أتعامل معه بأقل الكلمات ،هذا أراه مبررا كافيا لاختزالي الحوارات معه .

- تريدين رأيي؟

(كغريق يتعلق بأي قشة): بلا .

- حالة مس جن واضحة .

نظرت لعمر بذهول

- أعلم أنك تستغربين ولكن هذه الحالة كانت لصديق معي في الجامعة ومن أسرة عريقة جدا وكان يتحدث بأشياء لم يمر بها أبداً .

- وهل شفي من حالته ؟

- للأسف مات كما هو .

- هل تلقى علاجا نفسيا ؟

- نفسيا وروحيا على يد مشايخ وقساوسة ولا تغيير.

عدت إلى البيت معبأة بخيبة أمل كبرى أخشى أن أفرغها غدا في جلستي مع فرح، فداهمني صداع شديد.

في الصباح .

- ألو ..ليس عادتك يا شهد أن تنامين لهذا الوقت المتأخر ؟

- لا أستطيع زيارة فرح اليوم سأعتذر لوالدتها .

- لا أصدق ..كاد الفضول يقتلك أمس لمعرفة المزيد .

- الصداع يقتلني اليوم أكثر .

-عرفت ..سهرة مع عمر على أضواء الشموع.

ابتسمت : سهرة لكن على شرف فرح .

نورا: مسكين عمر حتى وأنت معه عقلك في عملك ، أتساءل أنا هل قلبك لا يدق مثلنا ؟!

-قلبي يدق في عقلي .

-لا أفهم .

- أنا لا أجيد الاستماع لقلبي .

- صماء .

- ربما .

أغلقت الهاتف وأنصتّ لدقات قلبي سمعت نبضه في كل مكان في أوردتي وخلاياي !

فتحت هاتفي وقائمة اتصالاتي بحثا عن رقم الشيخ طاهر صديق العائلة وأثق في رأيه.

-السلام عليكم .

-عليكم السلام ابنتي .

قصصت له القصة كاملة وعقبت

-ترى أتحتاج هذه الفتاة لعلاج من المس ؟

-ما ترونه ليس مسا أو سحراً ، الشخص المصاب بالمس يتكلم على أنه هو نفس الشخص ولكن بطريقة مختلفة وشاذة ،أما أن يدعي أنه شخص آخر ويعيش حياة أخرى هذا وضع مختلف .

-بماذا تنصحني إذا؟

-الحقيقة لو كانت امرأة رشيدة كنت أوكلت لكِ الأمر وقلت أنه جنون لكن كونها فتاة صغيرة الأمر جدا محير ، لو بإمكانك عرضها عليّ أفعلي.

-لا أعرف كيف سأعرض الأمر على أهلها ؟

-أتركي الأمر لصاحب الأمر يدبره ، إن كان هناك اعتراض من جانبهم لعرضها عليّ يمكنني الذهاب معك إليها .

-جزاك الله خيرا .

-أغلقت الخط وأنا أتساءل كيف يمكنني أن أفتح حوارا كهذا مع أهل فرح؟! وضعي حساس.. أنا طبيبة نفسية ، إن أقررت بذلك فهذا يعني إخفاقي في عملي.

ربما يحالف دكتور حسام الصواب يجب أن أفكر بطريقة أخرى .

قضيت يومي أمارس تمارين الأيروبيك على رقصة الزومبا الشهيرة وانهيت التمارين باليوجا للاسترخاء استعدادا ليوم جديد .

كانت مفاجأة لي ونورا أن تكون فرح في انتظارنا خلف باب الحجرة، أعطتني وردة حمراء وأعطت نورا وردة صفراء ،هل تعرف فرح لغة الأزهار وتعني بما فعلته إرسال رسالة ما لنا ؟!

-أنا سعيدة جدا بابتسامتك اليوم .

قاطعتني نورا :أنا أسعد بالوردة الحقيقة لم أُهدى بالورد أبدا .

ابتسمت فرح : أنا مثلك تماما لكن حفيدتي نادين كانت تحب الورد .

- كنت أنوي اللعب معك بعرائس سلاحف النينجا والأميرات لكن بعد ما قلتيه علينا أن نكمل حديث أول أمس .

يبدو أن فرح ارتاحت للحديث عن علياء وتشعر أننا الوحيدتين اللتين تصدقان ما تقول وتتفاعلان معه وهذا ضروري جدا في أي جلسة فضفضة نفسية ،اهتمام الطرف المستقبل بما تقول وحتى وإن لم يكن مقتنع به داخليا، ولكن تفاعله الحسي والذي يظهر جليا في شغف العيون هو ما يجعل الطرف المرسل يكمل للنهاية .

ـ كنت أرضع سعيد حتى سمعت صياح أبي فهرولت إلى حجرته : أبي مابك ؟

كان سعيد قد تجشأ في صدري عندما فزعني الصوت نتيجة لدخول الهواء إلى فمه فتجمد اللبن في داخل صدري وشعرت بنغزات موجعة ،فنظرت لأبي معاتبة أكثر من سائلة عن سبب صياحه،ربما لم يعرف سبب نظراتي لكنه أدرك ما وراء نبرة صوتي .

ـ لم استطع تمالك أعصابي ،أعرف أن الصياح يتعبك أعذريني .

منذ سمعت عويل أمي على أخي سعيد وأنا أصاب بارتعاشة كلما سمعت صوت صراخ ,انتبهت لصوت الراديو بجانبه.

ـإن كان يريد أن يتنحى فليترك السلطة لنا نختار غيره، أما هذه التمثيلية تعني أنه متمسك أكثر بها .

ـ يا أبي الناس كلها تحبه إلا أنت، كل أهلنا في دمياط والمنصورة والقرى المجاورة تعشق هذا الرجل، الجموع خرجت لتطلب منه ألا يترك الرئاسة .

ـ نحن شعب عاطفي .

ـ لا أصدق أن كل الناس أغبياء .

ضحك أبي فضحكت

ـ هكذا يا ابنتي الضحك عدوى وعدم الفهم عدوى .

ـ يا أبي إنه حمانا من الرئيس محمد نجيب وأعوانه المنتمين لجماعة الأخوان، وكلنا نعرف كم هي جماعة خطيرة علينا.

ـولماذا لا يكون كل تهمة محمد نجيب رغبة غيره في الانقضاض على الكرسي؟ ، تهمة الانتماء لجماعة الأخوان تهمة يمكن إلصاقها بكل مختلف في الرأي تهمة سهلة وجاهزة ولا رائحة لها كرغيف الخبز من الفرن الآلي .

طأطأت رأسي للأرض وخرجت .

إنها من المرات النادرة في حياتي التي أختلف فيها مع الحاج درويش في رأي ولأنها كذلك صمت،لأن الجدل لن يفضي لشئ، لا أملك الحجة لإقناعه بالرغم من أني أعرف أن ما فعلته الحكومة عندما اجتثت نخيلنا وأخذت من أرضنا لتوسع الطريق دون تعويض مناسب جعله

يشعر بالظلم ،فبات يكره الثورة وكل رموزها وقت حكم محمد نجيب ،كان يتصيد له الأخطاء، وعندما وصل جمال للحكم فعل معه نفس الشئ ،كما أعلم أنه عندما ناسبت عائلته الأمير رستم وبدأ يشعر بالفخر،جاءت الثورة لتأخذ أراضي رستم في الإصلاح الزراعي فأصيب بخيبة أمل كبرى .

عدت لسعيد الذي كان يبكي بشدة لأكمل ما بدأت معه ، شعرت بوخزات في صدري كالسكين تجاهلتها ظنا مني أنها بسبب تجشأه ولكنها استمرت لأكثر من ساعة ، تذكرت أمي رحمها الله حين كانت تقول أن هذا الشعور دوما ما يسبق أمر سئ وشيك الحدوث .

تركت سعيد نائما وخرجت لمنزل جارتنا صباح .

- لا أصدق..انتهيتِ من حياكة الفستان بهذه السرعة ؟

-عندما أكون متعبة أعمل أكثر مما يجب .

- أنتِ أغرب من عرفت من النساء أم كريم ، لا تثرثرين مثلنا وتتناقلين الأخبار ، تجيدين الحياكة كبنات المدن ،وتجيدين كل ما نجيده هنا .

- أنت تبالغين .

- ابنتي ستذهب لتعيش في القاهرة حيث الشوارع الواسعة والأتوبيسات الكبيرة ، لا رائحة لحرق قش الأرز تعلق في ملابسها ولا لزوجة الطين تعلق في كعب حذائها ،بالله عليك إن لم تكوني أنت هنا بأي ثياب ستسافر ؟!

- الأهم أن تعود لنا طبيبة .

خرجت من بيت صباح أتعجب كيف ارتضت لابنتها أن تخرج من حضنها لتعيش في الغربة؟، ألا تخشى عليها مما نسمعه عن المدينة وما تفعله بالناس ؟، وإن كان الرجال هنا لا يكترثون للتعليم فما فائدة تعليمها لابنتها ؟!

عدت إلى المنزل كل شئ صامت ، دخلت حجرة أبي وجدته مغشيا عليه .

لم تفلح كل محاولاتي في إفاقته .

لم أكن أعرف حينها أنه سيظل بين اليقظة والإغماء هكذا، حتى جاء عام 73

دخلت علينا ابنة صباح مرتدية بنطال وقميص،كانت تتابع حالة الحاج درويش منذ وصلت للصف الخامس بالجامعة .

ـ خالتي أرى أن حالته الآن أفضل ولكن كما قلت لكِ.. العلاج في يديه .

ـلم أعد أصنع حلوى في البيت فالسكر شحيح بالكاد نحصل عليه لكنها العصبية كيف أمنعها عنه يا نجلاء ؟!منذ أُغلِق مصنع الحرير وهو على هذه الحال .

ـ الصيد وزراعة القطن ليسا مرضيين له، لديه ما يعطيه أكثر، لكن كفر البطيخ لا يعطيه الفرصة .

دخل كريم :من تظنين نفسك يا ابنة صباح ؟ ميرفت أمين في فيلم " زمان يا حب."

نظرتُ لكريم بضيق وأنا أعرف الدافع وراء وقاحته .

ـكريم ..كيف تتحدث بهذه الطريقة مع الدكتورة نجلاء ؟

ـ دكتورة في المستشفى ,هنا نجلاء ابنة صباح .

ـ ليس لك الحق في الاستهزاء بي .

ـ أنت من أعطيتني هذا الحق ،أنا لم أكن أنوي دخول البيت وأنتِ فيه، والسبب معروف ولكن الشارع كله يتحدث عنك وسبق وتحدثنا في هذا الأمر قبل أن نصمت عن أي حديث .

ـ الناس لا شغل لها إلا الحديث عن بعضها .

ـلكن معهم الحق .

ـ لا حق مطلق ولا باطل مطلق .

لم أفهم الحوار الدائر بين كريم ونجلاء كليا ولكني كنت أعرف جيدا أنه يحبها بالرغم من أنها تكبره في العمر، وتفهمتُ إصراره على استكمال تعليمه بالرغم من أن جمال لم يكن يهتم بهذا الأمر ،فخرجت وتركتهما يتناطحان كديوك العشة الواحدة.

ـ نجلاء لا داعي للتفلسف .

ـ إنها دراستك أنت .

ـ كفاكِ جدلا، ستنفذين ما أريد بلا نقاش .

خرجت نجلاء أيضا من الحجرة ولم تعد لزيارة أبي لمدة .

- أصدقا ما تحكين ؟!

- وهل المزاح يكون في هذه الأمور .

لا أعرف لماذا يدهش والدي ما حكيت ؟،كريم صار رجلا ويستطيع فتح بيت وتحمل مسئولية ،وأبناء دمياط ككل أبناء المحافظات الساحلية تربوا على العمل منذ الطفولة إما في الصيد أو التجارة أوالزراعة وهذا هو الفرق بيننا وبين باقي محافظات في مصر .

نمت لأستيقظ على صوت شجار جمال وكريم .

- ما الأمر ؟

- يا أمي يريد جمال أن يرتدي هذا الجلباب في هذه المناسبة .

- هذا الجلباب أنا من حكته له .

- أنا لا أعيبه أبدا ،ولكن عمدة أولاد حمام يدعو عمد كل القرى المجاورة للغداء وأنا اخترت لجمال هذه البدلة التي اشتريتها له من دمياط وهو لا يريد ارتداءها .

- كل أهل البلد يرتدون الجلباب .

- ولكننا أفندية خرجنا وتعلمنا مالنا ومال من يعملون في الأرض ويرتدون الجلباب ؟

- ما أعجبك يا كريم فعلتَ بنجلاء ما فعلتَ لأنها ترتدي زي المدينة التي اعتادته ! وتفعل ما تفعل بجمال لأنك تريده أن يرتدي لبسا لا يناسبه !

جمال: أنا ؟ ..

قاطعته : سيرتدي جمال ما يريد ،الزغاليل متواضعون ويرتدون ملابسنا الفلاحي حتى من خرجوا للبندر وأصبحوا أفندية مثلك ويكفي ما فعله جدهم زغلول الأكبر مع ياسمين .

- ماذا فعل يا أمي ؟

- هذه حكاية كانت تتندر بها أمي وتتمنى لأيّ من بناتها أن تكون كياسمين التي سمع عمدة أولاد حمام عن ورعها ونور وجهها وتلاوتها الحسنة للقرآن الكريم ،وكيف أن أباها لا ينام ليلا إلا بعد سماعه القرآن بصوتها مرتَّلا وهي تعيش معه في عشة من الطين ، فقرر أن يتزوجها, لم يصدق أحدٌ من أهل البلد أن يتزوج عمدتهم بفتاة معدمة لا يملك أبوها سوى

"كوبية "لكنه لم يسمع لأي منهم وأنجب منها البنين والبنات ،وكثير من الحكايات تناقلت عن كرم هذا الرجل وحبه للفقراء ولم تخرج العمودية حتى الآن من دارهم .

- أيعقل هذا يا أمي رجل لا يملك سوى كوبية صيد توضع في الترع لصيد أسماك البلطي والقراميط..ولا يملك حتى مركبا واحدة في البحرليصطاد البوري والمرجان والدنيس تتزوج ابنته من عمدة .

- تعلّم الحكمة من أجدادك ..خذها فقيرة يغنك الله بفضله .

- بالمناسبة أين جدي ؟

- ما زال نائما .

- سأذهب أولا لإيقاظه فلا ذهاب لنا بدونه .

- بالطبع صحبتكم لجدكم درويش شرف لأي مكان ،خاصة بعد زواج خالتكم ومصاهرتنا لعائلة – رخاثاني - أكبر عائلة في دمياط والتي يسعى للنسب منها الكثيرون .

خرجوا جميعا وتركوني مع سعيد فلا مكان للنساء في هذا المجلس حيث ستمدّ صواني كبيرة عليها قطع اللحم والفتة والمرقة والفاكهة الطازجة من الغيطان والحلوى البيضاء والملونة والأرز باللبن وغيرها من الأصناف .

خرجت للجمعية لأسد حاجتنا من الدقيق والسكر والزيت.

وقفت في طابور طويل ،فقدت ربطة شعري وكدت أن أفقد وردة شبشبي الذي أرتديه في قدمي، فكل القرية تعرف بموعد نزول هذه السلع للجمعية ولما كان في هذه الأيام كل شئ يصعب الحصول عليه، فوصول هذه السلع فرحة كبيرة لنا .

انقضى النهار وعاد الرجال .

- صدقت يا أمي فيما قلت .

- هذا الرجل فعل اليوم شيئا استغرب منه الجميع ولم يبال هو، فعلا يشبه جده .

درويش : رجل من ظهر رجل .

- تخيلي أنه كان هناك رجل فقير ثيابه ممزقة يعمل في مسح الكراسي وتنظيف دورات المياة يمر بمكان الغداء، كانت عائلة الأمير رستم موجودة وكل عمد القرى المجاورة ونادى

عليه عمدة الزغاليل فأكمل الرجل مسيرته دون التفات لنا، لكن العمدة أشار للغفر فأحضروه إلى المجلس ،وقف الرجل مرتجفا ظنا منه أنه سيعاقب لشئ، فقال له العمدة : ما يمر رجل على طعام إلا وكان له منه .

فظل الرجل متسمرا في مكانه وجميعنا ننظر إليه وتوقفنا عن تناول الطعام حتى يحضروا له طعامه وينصرف .

لكن المفاجأة أن قام العمدة وأجلس الرجل بينه وبين عمدة كفر الحمام والأمير رستم اللذان نظرا للرجل باشمئزاز، ونظر الجميع للعمدة باندهاش حتى سمعت بعض الجالسين يقولون أنه يستهزئ بهم بما فعل .

ـ كنت أنا وكريم ننظر لبعضنا البعض ونبتسم .

ـ جدك يعرف الكثير عن أصل هذه العائلة وحكى لي نوادرهم .

ـأحكي لي يا جدي رجاءا

نظر لي أبي مبتسما وقال :أعرف ماذا تريدينني أن أحكي .

ـ قبل أن تولد أمكم بعشرة أعوام كانت جدتكم في دار أبيها وطرقت بابها زوجة العمدة تطلب منها ومن كل نساء الدار أن يدهن أجسادهن بالعسل الأسود

ـ لماذا ؟

ـ لقد وصل إلى العمدة أن بعض الجنود الإنجليز دخلوا القرى المجاورة وتحرشوا بنسائها، ولمّا أستشْعَرَ أن هناك خطرا على قريته جمع نساء القرية وأمرهن بطلاء أجسادهن بالعسل الأسود وأن يضعن عليه تراب الفرن .

ـولكن هكذا سيلتف حولهن الذباب .

ـ هذا بالضبط ما أراده .

ـ فعندما رأى الإنجليز هذا المشهد فروا هاربين ولم يمكثوا في القرية .

ـ نساؤنا يعتززن بكرامتهن وشرفهن ولا يسمحن لرجل أن يدنس ذلك ،حتى ولو أكل لحمنا البعوض والذباب ..هكذا قالت لي أمي .

ـ ولكن لماذا سميت قرية أولاد حمام بهذا الاسم ؟

- عدد كبير من القرى تسمى نسبة لأكبر عائلة تسكنها ولما كانت عائلة الزغاليل هي أكبر عائلة والزغلول فرخ الحمام فسميت أولا حمام .

تعالى صوت ضحكنا :خيراللهم أجعله خيرا .

- مثل والدتك تتشائمين من الضحك .

نظرت لأبي مبتسمة هل أنا ووالدتي فقط من بين النساء ممن تتشائمن إذا ضحك الجميع ؟!

كل النساء هنا مثلي .

صوت طرقات عالية على الباب.

خرج كريم ليفتح الباب .

دخلت نجلاء تغمر وجهها الفرحة : لقد عبرنا .

- نجلاء تأكدي مما تقولين ..أنت تعرفين جيدا حالة أبي منذ جاء خبر النكسة في 67 وقد أصابه مرض السكر ولا انتظر مرضا جديدا يصيبه ابنتي .

- أديري الراديو ، أسمعى صوت الزغاريد في كل مكان .

- هذا نفسه ما حدث سابقا، الراديو يكذب والنسوة تصدق وتزغرد ثم يبكين وينتحبن.

- نجلاء ماذا تقول الإذاعات الأخرى ؟

- إذاعة العدو نفسه تعترف بالهزيمة.

جمال هرول إلى الراديو وأداره وسمعنا ما يقال وسقط أبي مغشيا عليه .

نظرت إلينا فرح : سعيدة بكم ولكن أريد أن أرسم .

نظرت لنورا التي كانت في عالم آخر لم تخرج منه حتى بعد أن أيقظتها فرح بكلماتها .

- أجهدناك اليوم .

- استريح جدا عندما أفضفض لكما .

أوصلتنا فرح لباب حجرتها وهذا يعد تقدما ملحوظا في علاقتها بنا ،كانت سعيدة وتدندن لنجاة الصغيرة (أما براوة دوار حبيبي ،قلة حبيبي ملانة وعطشانة يانا أروحله ولا أروح أشرب حدانا)

نورا لا تتحدث كعادتها وتنظر صامتة تتحرك كتمثال .

قاطعت أفكارها : مابك ؟

ـ كيف يحب جمال نجلاء وهي تكبره بخمس سنوات ؟!

ـ أهلا .. أنت تتسائلين وكأنك صدقت ما ترويه فرح وأن هذا ما حدث فعلا ، أين الهواجس والجنون والتهيؤات ؟

ـ أنا لا أعرف ماذا يدور في رأس هذه الطفلة ولا أصدق ولا أكذب ولكن أعيش فيما تقول وحسب .

ـ هذا خطر جدا يا نورا ألا تتذكرين نصيحة دكتور حسام.. أن لا نعيش مع أي حالة على أنها رواية نقرأها للمتعة .

ـ نعم بل رواية لا نتأثر بها أبدا ونقرأ فقط ما يحثنا على الاستنباط والاستدلال .

ـ أحسنت.. هكذا أنت طالبة بحث ممتازة.

ـ ولكني بشر وكلنا روايات .

نظرت لنورا باندهاش هل تمر بتجربة مماثلة وإلا لماذا تسأل بهذا الشغف .

ـ هل هذا ما يحدث معك الآن ؟

ـ لا وإلا كنت قصصت لك لكنه ما حدث معي منذ سنوات .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ كأي غبية ابتعدت عنه .

ـ لا أبدا هذا هو الصواب .

ـ شهد أنت لا تملكين قلب يشعر بالضعف مثلنا ،فلا فتوى منك في أمور كتلك.

ـ تعرفين أنا أريد أن أعرف لماذا يكيل كريم بمكيالين فيطلب من نجلاء ألا ترتدي ملابسها كما ترتدي بنات المدينة ،ويطلب في نفس الوقت من جمال أن يرتدي ملابس كأبناء المدينة في القرية التي قال إن هذا الزي الذي ترتديه نجلاء غير مناسب لتقاليدها ؟!

نورا تفتح كفيها مؤكدة : إنه الرجل عزيزتي .

ثم نظرنا في أعين بعضنا البعض وضحكنا .

ـ وقعتِ في نفس المصيدة .

- أشعر أن كلتينا ستصاب بالجنون بعد علاج هذه الحالة .

- لا هذا تفاؤل منك ..أنا لا أعرف هل لها من علاج وكل حكاياتها مشارط تنكأ جراح في دواخلنا ؟!

عدت للمنزل مجهدة ولكن لابد من القراءة فهي ملاذي للخروج من هذا التوحد مع الحالة لأبدأ التفكير من جديد .

كتاب التقمص الذي أعطاه لي دكتور حسام أتصفحه ، ربما أجد فيه إجابة لأسئلتي .

صوت جرس الباب يمنع استرسالي في القراءة .

عمر أمام الباب كيف تجرأ على المجئ إلي دون اتصال مسبق ؟!

- لماذا لم تبلغني قبل حضورك ؟

- أدخلي غرفتك لترين كم مرة حاولت الاتصال بك بلا جدوى .

دخلت إلى غرفتي اتصل بي أكثر من عشرين مرة ،لكن يجب ألا أظهر له أني مخطئة ،كون هاتفي الجوال كان صامتا منذ كنت معه في المطعم ، كنت أريد أن استرخي بعيدا عن أي شيء يقطع تسلسل أفكاري .

- نعم وجدت عددا من الاتصالات مبالغ فيه ، ولكن هذا لا يعطيك الحق فيما فعلت،وأنت تعرف أني أعيش وحدي هنا منذ تركت أهلي في سوهاج لأستكمل دراساتي العليا فيا لقاهرة.

أعطى عمر ظهره للباب عائدا من حيث أتي : أعتذر عن قلقي وإزعاجي لك باتصالاتي وأعدك بألا أشعر بالقلق عليك .

استشعرت بغلاظة ما فعلت .

- انتظر .

- ألم تنه توبيخك بعد ؟

- ألا تحتاج لكوب شاي ؟

- بالطبع .

- إذا فلتشربه وتنصرف .

جلست وعمر نحتسي الشاي متباعدين، فكان يشعر بقلقي حيال وجودنا معا على انفراد وهو يعرف كم أنا أراعي ألا يقترب مني قبل اتمام زواجنا كما هي قناعاتي وما تربيت عليه في الصعيد.

- تعرف أنا أيقنت أن روايتك عن الجن وعلاقته بفرح ربما تكون صحيحة .

- الحمد لله أنك اقتنعت برأي أقوله .

- لا دلالة على ذلك ولكن ما قرأت في هذا الكتاب جعلني استبعد فكرة التقمص .

أخذ عمر كتاب الروح والتقمص وبدأ يقرأ .

- لا توجد أزمة في الأرواح ولا يمكن أن يعجز الله عن خلق روح لكل جسد لكي يعيد الروح الواحدة في أكثر من جسد،والإنسان لا يعيش بروحين ولا يعتقد فيها أيّ من الأديان سوى طائفة الدروز واعتقاداتهم تحترم ولكن لا يؤخذ بها .

أنهى عمر قراءته قائلا : وحشتيني .

باغتتني الكلمة .

نهضتُ من مقعدي لأخذ كوب الشاي الذي انتهى منه ثم استشعر أن عليه الانصراف ما دام قد غير مسار حديثنا فحاول لمس يدي..سحبتها على عجل .

-هذا عقابك على بوحي بمشاعري ؟

- بيننا اتفاق مسبق أن هذا لن يحدث .

- بلا ولكن ليس ثمة اتفاق أن نتحول لأصنام .

- أعلم أنك تحبني هذا شعور جميل ..ولكن عندما يتحول لفعل تبدأ المشكلة.

- وكيف أترجم مشاعري بأي لغة تريدين ؟

- عينيك تبوح بكل ما تريد قوله .

مسك يدي بقوة ونظر في عيني : هذان العينان اللذان لا تقرأينهما مهما كتبتا لكِ من حب ورغبة ،وضع يدي على قلبه :هذا القلب الذي أسمع صرخاته الجميع إلا أنت ،كم من السنوات تريدين لكي تشعرين بألمي وأنت قريبة مني وبيننا مسافات من البعد تجيدين مدها .

خرج عمر للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات دون أن يودعني كما اعتاد فمنذ رآني في مناقشة رسالة دكتوراة لأعز صديقاتي والتي حضرها بعد إلحاحها الشديد فكان يقول لي : لم أكن أصدق أن أحب أخصائية نفسية أبدا وأتورط معها إلى درجة استشعر فيها أن قيمة كل الأشياء من حولي تنبع من علاقتها بها .

بينما أنظف الكوبين تساءلت : لماذا يغضب عمر منذ خطوبتنا بشكل لا منطقي من كل ما اعتاد عليه مسبقا ؟!،ربما استشعر أنه أصبح له سلطة علي فلم يعد يحتمل نفس الأشياء التي كان يتقبلها بلا كلمة واحدة تظهر غضبه حيالها ؟!..فكان يعتبر اهتمامي بعملي أهم مميزاتي والآن يراه عيبا ، هل يفعل معي ما فعله كريم مع نجلاء؟! فهي كانت طبيبة مثلي ،هل كل الطبيبات يتعرضن لما أمر به أنا ؟، ما الشئ المشترك بيننا غير المهنة لكي أمر بما مرت به نجلاء؟!

ذهبت لحجرتي وأحضرت الصورة التي قد رسمتها فرح لعائلة علياء ربما أصل منها لخيط جديد ، أنظر لكل أفراد أسرتها أتأملهم وأسرح بخيالي معهم ، وضعت دائرة حول جبران.

اتصلت بنورا .

- الحمد لله أنك لم تنامي بعد .

- لهفتك تعني أنك وصلتِ لشئ.

-جبران .

-زوج علياء !

- هو الشخص الوحيد الذي لم تتحدث فرح عنه حتى الآن، منذ بدأت الحكي عن عائلتها المزعومة .

- ربما لارتباطها الوثيق بأبيها الذي تدور كل أحداث البيت من خلاله .

-لكنها حكت عن كريم وجمال وحتى سعيد الذي لا وجود له في الصورة .

- ربما مات عنها .

- هذا مستبعد صورته تجاورها وكريم وجمال كبار ولها أحفاد منهم وباقي أولادها التي لم تنجبهم بعد حتى عام 73 .

- ربما انفصلا بالطلاق .

- الطلاق كان في أضيق الحدود في هذه الحقبة ليس كما هو عليه الآن وشخصية بقوة علياء لن تسمح لطليقها بأن يقف بجانبها في صورة بعد انفصالها عنه خاصة وأبوها ليس في الصورة .

- نعم إنها قالت أن أبو كريم لم يكن ليسمح له بالعمل كجده .

- أي كان يكره أباها أو على الأقل لا يقدره .

- ومعنى عدم وجود أبيها في الصورة أنها كانت بعد موته .

-عندما سألناها عن اسمه تغيرت ملامحها .

- وقالت أنها تكرهه ،إذن هي من جعلت أباها هوالرجل الوحيد في حياتها وليس كما هومفترض في عائلة مصرية بدلتا النيل .

-غدا سيتكشف لنا الأمر .

- ستطلبين منها أن تقص روايته ؟

- من الصعب توقع رد فعلها بالأمر المباشر،فرح يجب أن تحكي كما يحلو لها،فأي شخص تقاطعين روايته أو تفرضين عليه سرد أيّ من تفاصيلها إما يصمت أبدا أو يتجاوز سؤالك لشغفه في الاسترسال.

- أو يكذب بشأن ماسألت عنه .

- فرح طفلة..أي تجيد اختلاق عوالم خيالية وشخوص لا وجود لها ،لكنها لا تجيد الكذب بمعناه المعروف لدينا لذا استبعدت هذا الأمر .

- ماذا تنوين فعله إذا ؟

- فقط سأتأكد مما أشك فيه .

توجهت لجهاز الكمبيوتر ونسخت سي دي لملف من الجهاز وضعته بجانبي .

الفصل الثاني

ـ ما هذا ؟

ـ لقد أهديتنا ورود جميلة تشبهك أمس واليوم أهديك هذا السي دي .

فرح ضحكت : أشكرك .

اتجهت فرح لجهاز الكمبيوتر فمسكت يدها .

نظرت لي نورا باندهاش فلم تكن تعرف ما بداخل هذا القرص المدمج .

ـالهدية لا تفتح أمام من أعطاها لك .

مبتسمة :معك حق .

نظرت للبعيد وبدأت الحكي .

ـ من الذوق أن نفتح الهدايا أمام أصحابها هذا ما قاله أبي لكريم عندما فتح العلبة التي أهدتها له نجلاء في يوم مولد أبو المعاطي وسقط أمامها يتكلم كسعيد .

ـ أأأنا لليه بح بح بكك

ارتعاشة جسده وحروفه المتلعثمة فاجأتها فخرجت .

كلنا كنا نتوقع من كريم ردة فعل مختلفة حتى هيا قالت فيما بعد : ليته صفعني على وجهي وقتها لربما رحمني .

بعدما انتصرنا في حرب أكتوبر أقيم صوان كبير امتد من كفر البطيخ لكفر سعد أبي بعدما تأكد من صحة الخبر كان يرقص من الفرحة ولم يعكر صفونا غير صراخ وعويل الجيران ممن كان لهم أبناء شباب استشهدوا في الحرب كنا جميعا بين مشاعر الفرح والحزن يرتدي عدد من نساء البلد الأسود وتشاركهم الأخريات .

أعددت صينية كبيرة مستديرة وضعت عليها الفروج المحمر والأرز المعمر والجبن والزبدة وحملتها إلى بيت صباح فقد جاءنا خبر استشهاد ابنها في الصباح وإن لم تتمكن من استلام جثته كمعظم شهداء الحروب ،لكننا أقمنا له في البلد سرادق عزاء وأرسلت له الجارات الزيارة الواجبة في مثل هذه الحالات .

ـ لماذا كل هذا التعب يا علياء ؟

ـ كيف تقولين ذلك يا صباح سأحضر الصينية سبع ليالي لا تدخلين فيها إلى المطبخ.

- رحمه الله كان يحب نفسك في الأكل علياء .

- هو حي يرزق في الجنة صباح ولديه أجمل مما صنعت ولك عندي حق الخدمة حتى تتعافي ولا تشغلي بالك بأي شئ الجيران أهل .

- وأكثر من أهل ..دام بيننا المعروف .

كانت صباح تعيش معنا لكن أهلها يعيشون في المنصورة وجاءت مع زوجها إلى هنا في أوائل الستينات في الوقت الذي قررت فيه الشئون الاجتماعية إلغاء رابطة آل عابدين التي أسسها زكي عابدين جدهم، كانت تروي لي دوما هذه الحكاية بحسرة ،حيث كان رمضان من كل عام موعدا لالتقاء العائلة من كل محافظات مصر حتى ألغيت الرابطة وتغير كل شئ على حد قولها .

عدت للمنزل لأجد سعيد أرهقه البكاء فذهبت لإرضاعه، طرق كريم الباب ثلاث طرقات كعادته ليستأذن في الدخول وضعت شالا على صدري وأذنت له .

- أتريدين شيئا من خارج الدار يا أمي ؟

- إلى أين يا كريم ؟

مر علي نفر من قريتنا ليأخذونني معهم لأنهم قرروا حفر مجرى بترعة السلام ، نهضت واقفة وتذكرت في دهشتي أن سعيدا بين يدي وضعته على السرير .

- هل جننت ..من هذا الذي يقرر؟! إذا كانت الحكومة تمنع ذلك، ولا ري من ترعة السلام إلا للمساحات المجففة من الترعة نفسها .

- وهل من العدل أن تمر ترعة السلام بأراضينا ونرويها بماء مختلط بالصرف الصحي ؟

- الحكومة يا بنيّ عندما بعثت موظفيها أقروا أن أراضينا قديمة وليست من الأراضي التي جففتها ترعة السلام حين حفرت، والحقيقة أنهم وفروا لنا مصدر ماء يكفي للري .

- أنت تعرفين يا أمي أن مياه الصرف ليست مصدر جيد أبدا للري .

- أعرف ..ولكن ما باليد حيلة .

- هذا حقنا وسنسترده .

خرج كريم وزاد قلقي ،ذهبت لأبي فوجدت سريره مرتبا وبلغة قدمه الجلدية السوداء ليست موجودة أيضا تساءلت في حيرة: ترى أين ذهب ؟

انقضى اليوم وعاد أبي .

- لماذا لم تخبرني صباحا أنك ستخرج ؟!

-لم أكن أنوي ذلك ، لكن جاءني خبر وفاة أعز أصدقائي (رفعت علي سليمان الجمال)والعزاء واجب .

- يا أبي تذهب لحي الشرباصي بدمياط وتعود في نفس اليوم دون أن تخبرني،وكريم ! كان من المفترض أن يصطحبك إلى هناك ليؤنس رحلتك لماذا لم تخبره ؟!

- كريم يحفر مع الشباب ،لم أرد تعطيله .

نظرت لأبي مندهشة :هل من المعقول أن تعرف ما يفعل هؤلاء الشباب وتتركهم لطيشهم؟!

- عمدة البلد بنفسه واقف معهم ، مورد ماء الأرض حق حياة يا علياء وليس طيشا.

دخل علينا كريم .

-ما بالك لون وجهك متغير هكذا ماذا حدث ؟

-كريم بينما يعلو نبضه:بعدما جمعنا المبالغ المطلوبة من العائلات التي ستستفيد من المجرى كنا قد اتفقنا مع مهندسي الري من البلد وأحضروا الرمل والحديد وبدأنا الحفر منذ ليلة و أنتهينا اليوم من تركيب بوابة المجرى المائي في الترعة في السابعة صباحا ،ولكن بعد ساعتين ،هناك من وشى إلى القسم ومديرية الري بنا ،فأرسلت أمن الدولة في طلب العمدة ولكني سمعت أنه قال لهم : إن القرية تحتاج لهذه البوابة ومن يستطيع كسرها فليكسرها .

أبي: هنا جاء دورنا علينا بإرسال خطابات للمحافظ ومديرية الري ووزارة الري بالقاهرة لكي نؤكد حقنا في هذا المجرى

- هذا أفضل تفكير يا جدي .

نظرت لهما مبتسمة فبالرغم من مشاركة جمال لأبي في الصيد إلا أن كريم كان الأقرب بشخصيته إلى أبي .

مرت السنوات ولم تحطم بوابة المجرى بل وافقت الحكومة عليها بعد ان تأكدوا من خلال دراساتهم بحاجتنا لها .

الحقيقة أنها ليست المرة الأولى التي أخفق فيها في الحكم على الأشياء من هذا النوع فعندما ذهبت بي أمي لزيارة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ،كانت فخورة جدا بأنها تنتمي لعائلتها روت لي طوال الطريق كيف أنها أول امرأة حاضرت في الأزهر الشريف وكانت أستاذا للتفسير والشريعة بجامعة القريين بالمغرب ،وكان أبي يقرأ مقالاتها في جريدة الأهرام وكم تمنت أمي لو كانت مثلها وقالت لي أنها تتمنى لو ذهبت إلى دمياط المدينة لأتعلم مثلها، فضحكت وقتها قائلة : التعليم لم يخلق للبنات ،ولو لم يكن والدها من علماء الأزهر لكانت مثلك يا أمي .قالت لي أمي وقتها أنني أخشى مجرد المحاولة حتى وإن كانت التجربة تستحق ،لم أفهم ما قالته أمي فكثيرا ما قالت جمل صعبة فكان أبي دائم القول: لولا أن أبيها خسر أمواله في بورصة القطن ما كان تزوجها أبدا .

كانت جميلة تعرف لغتين الإنجليزية والفرنسية وعندما جاءت إلى كفر البطيخ كانت تقول لو أنها سميت كفر الفراولة أو المانجو ألم يكن أجمل؟! فكان يضحك أبي ربما كفر الجوافة فهي أكثر الأشجار حضورا في القرية كان يتمنى أن ينجب بنتا ويسميها على أسمها مريم .

باغتني صوت سعيد .

سعيد : (أمه كريم إيجي) .

نظرت له بين الفرحة والإنكار.. كريم بعث لي مكتوبا من يومين أنه لن يأتي قبل أن ينقضي شهر الإمتحانات ربما تخيل سعيد أنه كريم، تجاهلت سعيد ودخلت لأبي حجرته .

- ما بالك ، أرى حواجبك تكاد تتقاطعان وشفتيك مزمومتين ؟

- أشعر بالقلق على جمال منذ سافر لميناء دمياط .

- أي سفر هذا ؟الميناء على بعد كم فدان من كفر البطيخ .

- لماذا لم يرسل لي مع أحد أصدقائه ليقول إن كان مرتاحا أم ينقصه شئ والليلة موسم ولم يعد ،هو يعرف أني أعد له البط والمحشي كيف آكل أنا بدونه .

- وأنا وسعيد وهذا الطفل المظلوم في بطنك ألا نكفيك لتأكلي معنا .

- نعم يا أبي ولكن .

- أنتِ مريضة بالخوف علياء ،أتقي الله واطمئني أذهبي لتتوضئي وصلي ركعتين لله واستغفري .

في طريقي للخروج من الحجرة دخل كريم وخلفه سعيد يأكل فطيرة العسل والكريمة.

- أمي اشتريتها له من دمياط لأنهم هناك يصنعونها بشكل مميز وأعلم كم يحبها .

- هو عرف أنك هنا قبل أن تجيء ،سبحان الله، ربما كان ينتظرها .

سعيد يأكل مبتسما وتتساقط قطع من الفطيرة على صدره: منام .

- أه لقد رآك أنت والفطيرة في المنام .

- منامه حق فهو قريب من الله.

نظر كريم لسعيد بحسرة فقد كان يحنو عليه ويشعر نحوه دوما بالمسئولية منذ جاءته الحمى الشوكية وارتفعت حرارته وكان عمره سنة ولم يفلح معه الأطباء في الوحدة الصحية في كفر البطيخ ولا فارسكور، كان كريم في دراسته وعندما عاد واصطحبه إلى دمياط قال له الأطباء :أن الوقت قد فات لفعل أي شئ. فشعر كريم بمسئولية تجاهه بينما كنا جميعا نرى أنها إرادة الله ولا مفر منها .

- ها وقد جاء كريم.. فلتعدي طعام الموسم .

- أمي لا تعدي لي الآن شيئا فقط أريد أن أنام .

- مابك يا كريم ؟! أنت منذ دخلت علينا وأشعر أن بك شيئا .

- لا شئ يا أمي .

- أعلم أنك لا تحب الاحتفال بمولد سيدنا أبو المعاطي ولكن .

خرج كريم من الحجرة قبل أن أستكمل كلامي

درويش : علياء خذي سعيد وأعدي الغداء ونادي كريم أخبريه أني أريده في الحجرة .

خرجت لأجد كريم واقفا أمام باب الدار يتأمل الأرض المزوعة حولنا ،هذا يعني أن الموضوع لا يخص مولد أبو المعاطي وإنما حدث مع كريم شئ لا يريد الحديث فيه معي، قاطعت تأمله : كريم جدك ينتظرك في غرفته .

- جدي أشعر بالضيق لدرجة جعلتني أخشى ألا أكمل دراساتي العليا .

- ماذا أبعد أن قطعت كل هذا المشوار ؟! أنا أملي فيك أن تصبح مثل دكتور" على مشرفه " أينشتاين العرب،لقد درس الفلسفة مثلك وكلنا في دمياط نفخر به.

- يا جدي تختلف دراسته عن دراستي ،هو درس فلسفة العلوم أما أنا أدرس الفلسفة النظرية.

- المهم أنك ستصبح دكتورا مثله إنه كان من عائلة جدتك كانت تقول إنه أول عميد مصري لكلية العلوم حاصل على البشاوية لقد منحها له الملك فاروق .

كريم ضاحكا : روت لي أمي قصته عدة مرات وقالت إنه لقب بأينشتاين العرب لأنه ناقش أبحاثه مع ألبرت أينشتاين .

- ما دمت تعرف كل ذلك لماذا لا تريد أن تستكمل دراستك ؟

- أنتم مصرون على سكني مع العائلة هناك وأنا لم أعد أطيق .

- لماذا يا بنيّ هل حدث بينكم شجار ؟

- يا جدي أنا متحرج مما سأقول .

درويش وضع ذراعه على ظهر كريم : لا حرج بيننا .

- عندما يضعون الطعام كل يوم يذكرون كم هي الأسعار مرتفعة والناس يجب أن تثور على ما يحدث .

- أه فهمت وبالطبع يقللون نصيبك من الطير واللحم وربما اللبن أيضا ،سأجعل والدتك تجهز لك زيارة كبيرة من الطيور واللحم وعشرة كيلو من اللبن وشوال أرز كبير وبعدها لن يتجرأ أحدهم على مضايقتك .

-لا أصدق أن من لا يحسن معاملتنا لصلة الدم بيننا سيحسنها بالطعام .

درويش : بعدك صغير يا كريم لم تخبر الدنيا كما هي ما أقوله لك لن تعلمه لك الكتب (أطعم الفم تستحي العين) طالما ملأت بطونهم ستكف أفواههم عن مضايقتك أنا أعرف كيف يفكر الناس .

-ولكن يا جدي أنا أدفع لهم جزءا كبيرا من راتبي من الجامعة وأدخر ما يخرج عن صناعة الخشب لجهاز نجلاء ، لقد صنعت لها حجرة نوم من خشب الزان مذهبه ووورودها بارزة .

-إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن حجرة نوم بحليات مذهبة بعد أن قامت ثورة يوليو وضيعوا القصور وبددوا معظم ما فيها من أثاث ولوحات وكأن عدائهم كان مع البيوت لا مع ساكنيها .

- يا جدي لكن الملوك كانوا يستعبدون الشعب .

- إن كنت ترى أن نظامهم استعبادا فلابد أن تعرف أن كل النظم الاقتصادية تنتهي بالعبودية.

- لا بالطبع هناك الأنظمة الرأسمالية التي يطبقها السادات الآن .

أبي ضحك قائلا : الفرق سيكون فيمن هم ملوك العصر الجديد ! ..غدا ستتذكر كلماتي وتضحك قائلا ..قالها جدي الذي لم يذهب في تعليمه إلى أبعد من كتاب الكفر.

- ربما .

- أعلم أن حديثي لن يقنعك ..هناك عبارات نقولها ونحن نعلم أنها تحتاج لزمن كي تدرك ..لست غبيا لأنتظر رد فعل منك الآن .ولكن ما يحيرني كيف ينسوا ما فعله معهم عثمان بك ليفعلوا هذا بحفيدي .

-سمعت هذا الاسم وأنا هناك.

- هذا الرجل هو عمي من بشوات الكفر كان محاميا في المحاكم المختلطة في الثلاثينات وقتها لم تكن المرافعات باللغة العربية وإنما كانت بالفرنسية وكان عدد المتعلمين يعد على أصبع،كان يريد لأبناء قريته أن يصبحون مثله ويتقلدون المناصب المهمة في الدولة

كانت كل القرى المجاورة ترسل أبناءها ليتعلموا في مدرسة الملك كامل في المنصورة ،وأذكر أن أخي الكبير سافر إلى هناك ولكنه لم يكمل تعليمه وعاد بلا شهادة ،وعندما أدرك عثمان باشا أن بعض الشباب يرسلوهم أهلهم إلى هناك ويتهربون من الدراسة، قرر استئجار شقة في مدينة المنصورة جمع فيها كل الشباب الراغبين في استكمال تعليمهم ،وأحضر لهم طباخا حتى يوفر لهم سبل الراحة ولا يفكروا إلا في الاستذكار ،وقتها كانوا أربعين شابا فأصبح منهم أطباء مهندسين علماء أعضاء مجلس النواب وزراء ومحافظين .

- لا يحفظ الجميل إلا أهله يا جدي .

- صدقت يا كريم هم ليسوا أهله .

خرج أبي وكريم يسألان عن الطعام وبينما أضع الطبلية جاءنا جمال، نظر لي أبي مبتسما ،عانقني جمال لأسمع نبضه في قلبي ثم أخذه سعيد مني وغمره بالقبلات .

- لا يمكن أن يفوتني النصف من شعبان دون أن أجلس إلى طبليتك يا أم كريم .

- هكذا دللها أنت حتى تعاقبنا في غيابك .

- يا جدي أنت الدلال كله .

نظر كريم لسعيد فوجده يقف بجانب جمال يتمسح فيه كقطة تبحث عن طعامها

- كفاك مزاحا أين الحلوى ؟هيا أعطها لسعيد.

ذهب جمال إلى شنطته أخرج منها المشبك والحمص وأعطاهم لسعيد .

جلست لأقسم البطة وأعطي كل نفر نصيبه ومن ثم تناولت صينية الرقاق وقمت بتوزيعها.

-هل كان الحضور كبيرا؟

- لا تكادي تتبينين أحدهم من تلاحم الرؤوس .

كنت أتمنى أن أكون هناك مع جمال فمنذ كنت طفلة كان يأخذني أبي في الثامن من شعبان وحتى منتصف الشهر ختام المولد،والبائعين يضعون المراجيح للأطفال في الشوادر والحمص الشام بالشطة والليمون المشروب الرسمي للجميع آكل الحلوي ،الملبن والسمسمية وأرى الدراويش يترنحون مع الإنشاد والدفوف ولكن لم أر أبي يشاركهم أبدا ، كنت أشاهد سيرك الحلوه وسيرك عاكف الشهير حيث يمشي الخواجه بيرلو على الحائط بالموتسيكل وأخشى أن يسقط فأضع كفي على عيني ثم أزيحها قليلا لأسترق النظر إليه وأعيدها مرة أخرى .

صوت جمال أخرجني من أفكاري .

- أريد قطعة رقاق أخرى من نصيبك .

- من أسوء عاداتك يا علياء ما علمته إياك أمك ..ألا تأكلي نصيبك حتى ينتهي الجميع .

- حتى إذا واجهك أحدهم – بطفاسته - تمنحيه أنت أجمل ما صنعت يداك .

-تهوى معاكستي .

- تعرفون من غنى في المولد هذا العام ؟ المطربان محمد طه وشفيق جلال .

- وهل ما زالت مسرحيات السيرة الهلالية تقدم كما كنا نشاهدها صغارا؟

- نعم لم يتغير شئ سوى امتناعك عن الذهاب هناك .

- أنت تعرف رأيي في الموالد وزيارة الأضرحة ولا مجال الآن لهذا الحوار.

انهينا الطعام وذهبت لتجهيز أكواب الشاي بينما استكمل جمال حواره .

- ولكن يا كريم هذا المولد يحدث رواجا تجاريا كبيرا في دمياط والمال الخارج من النذور على الضريح يذهب للفقراء واليتامي وتتزوج به الفتيات .

كريم : ديننا ليس فيه إلا مولد واحد وهو مولد الرسول (ص) أنا أحترم أولياء الله ولكن لا أذهب لزيارة قبورهم، لم أقرأ هذا في السنة النبوية فكيف أقتنع به ؟

جمال : لكن ما الضير في ذلك ؟

- هذا الجدل لن يصل بكما لشئ ،أنا أعرف كل ما تريدان قوله مررت بهذه التجربة في مثل عمركم كنت في المولد أقف أشتري لكم الحلوى دون أن أشارك الرجال شعائرهم فاقترب مني أحدهم قائلا :إن لم تشاركنا لن تستشعر بطاقة النور المنبعثة من داخلك الآن، نظرت لنفسي أين النور الذي يتحدث عنه الرجل؟، أجابني : هو في قلبك الذي لا يريد أن ينصت للأصوات التي حوله أخذني من يدي بعيدا عن الصخب وقال لي هل تعرف من هو هذا الرجل الذي يتجمع حول ضريحه الناس وماذا فعل في حياته ليستحق هذه المكانة ؟

اسمه الحقيقي فاتح بن عثمان،لقد جاء إلى دمياط قادما من المغرب في القرن الثاني عشر بعدما هدمت دمياط ورحل عنها لويس التاسع ،وكان دأب الصوفيين وقتها الإقامة في الأماكن المهجورة ليربوا مريديهم على الزهد والتقرب إلى الله بالانتصار على النفس وكبح شهواتها ،وبنى زاويته بجوار جامع عمرو بن العاص والذي يقام المولد بجواره الآن ،هذا الرجل لقبه أهالي دمياط بهذه الكنية(أبو المعاطي) لكثرة عطائه للفقراء وإيوائه أهل السبيل فكان يسقي الماء في الأسواق حسبة لله لا يأخذ مقابل ويخدم الأرامل والضعفاء ويستكثر ما يقدم إليه مهما كان قليلا .

بعدما أنهى الرجل حديثه عدت أفكر فيما علمه لي أبي وبين ما أسمعه ،فلقد علمني أبي ألا انتمي لأي حزب سياسي ولا طائفة دينية كان يقول : قرارك سطوته عقلك وفطرتك .

- كان فيلسوفا أبوك جمع بين العقل والفطرة السليمة فهما مصدر كل القرارات الصائبة .

- الشاي يا أم كريم .

- ما بك اليوم تناديها أم كريم .

- ألست أخي الكبير ؟

- لا هناك شئ وراءك .

- الحقيقة هناك موضوع .

وضعت أكواب الشاي وجلست بينهم .

- أنتم تعرفون أنني كبرت وصرت رجلا والحقيقة أنني .

قاطعته بزغرودة :ألف بركة .

- لكن أخوك كريم لم يتزوج بعد .

- أخي عروسته تنتظره والكل يعرف ذلك، ولولا إصرار كريم على تجهيز مهر يليق بها وشبكة لم تلبس مثلها بنت في البلد كلها لكان الآن ابناؤهم ملئوا الدار .

- جمال يتكلم الصواب جدي .

- لله الأمر من قبل ومن بعد من أي عيلة في البلد.

قال بثقة : السعدية .

- على البركة هذه العائلة لا تخرج منها العمودية .

- يا جدي بعد أن ناسبنا الزغاليل والبربير نسبنا للسعداوية سيزود فرصنا في عضوية مجلس النواب والعمودية .

- نظامنا هنا غريب العمودية وعضويات المجالس نحصل عليها بالمصاهرة .

- لا أعرف في أي مدارس تعلمت يا ابن بنتي ، هذا نظام العرب حتى أن الحروب بين القبائل تنتهي بالمصاهرة فما البدعة فيما نفعل ؟

- وحتى الأجانب اللذين تدرس لهم عندهم نفس الفكرة ،من يصل للرئاسة يولي حزبه المناصب الأهم في الدولة .

- أعرف هذا جيدا، ولكن هناك منظومة تسمى الكفاءة ،لكن ليس على أساس العرق والنسب فقط يجب أن يكون للجودة أولوية في الاختيار .

- اتفق معك في هذا الرأي .

لم أكن أسمع ما يقال كنت شاردة في هذه المصاهرة .

- سمعت أنهم يشترون بكل ما لديهم من مال فدادين حتي وصلت ملكية العائلة300 فدان .

- وماذا عن قانون الإصلاح الزراعي ألم يطبق عليهم ؟

- منحوهم فرصة لتوفيق أوضاعهم فقسموا ملكية الأراضي على أبنائهم وأحفادهم وكما قالت والدتك حتى أساتذة الجامعة منهم والأطباء يعتزون بامتلاك أراضي زراعية .

- والله يا جدي لو رأيت البيوت المبنية فوق الأراضي الزراعية والتجريف الذي يحدث في كل القرى لجننت من تلك المفارقة .

- أحمد الله على مرضي الذي عفاني من هذا المشهد، لا أعرف كيف لفلاح يعرف أن الأرض هي عرضه وشرفه ويأخذ الطمي منها ويبني فوقها بيتا له وينام مرتاح الضمير ؟!

- كل شبر بنى فوق الأرض، حرم أمامه المئات من طعامهم .

- وخاصة بعد بناء السد حيث لم يعد ثمة فرصة لاستعادة الطمي مرة أخرى القادم مع فيض النيل .

- الموجع أنه بعد أن يمتلك الفلاح أرضه التي كان يعمل فيها من قبل أجيرا بالسخرة ، يدمرها بهذا الشكل .

- الفلاح الحقيقي هو من كان واقفا معنا لبناء المجرى وليس هذا الذي جرف أرضه .

- هذا ما كنت أقوله لك في الحجرة .. الرأسمالية والانفتاح خلقا فلاحا مزيفا يريد أن يصبح كقطع الجبن المعلب منظر بلا طعم .

- يا جدي الكل يلهث وراء المال .

طرقات على الباب .

تدخل نجلاء يستقبلها كريم بحفاوة

قدمت إليه علبة صغيرة ملفوفة بشريطة حمراء موضوع داخلها ظرف فتحه كريم وجلس على الكرسي بعد أن اختل توازنه، فأعطته شنطة كبيرة لعدد من الهدايا التي كان قد أحضرها لها في مناسبات مختلفة وخرجت .

لا أعرف ما السر وراء ركض سعيد وراء نجلاء وماذا قال لها .

لكن كلنا التففنا حول كريم الذي تلعثمت كلماته كطفل وآخر جملة أتذكرها فيما قاله وقتها : لن أنتظر السراب .

توقفت فرح عن الحكي فنظرت إلى نورا بجانبي وجدتها مبهوتة، فمها مضموم وعيونها مسلطة على فرح، أما أنا فكنت شغوفة لمعرفة ما الذي جعل نجلاء تقرر أن تتخلى عن كريم؟ وهل أحبته كما أحبها ؟أو بالأحرى هل ما كان يحمله كريم لها من مشاعر هوالحب !

فرح تدندن لأم كلثوم (أروح لمين ..وأقول يا مين)

قاطعتها : ما رأيك في أن تفتحي هديتك .

ـ كيف وأنتِ مازلتِ هنا ؟! أنا ضد أن أفتح الهدية أمام صاحبها

ـ كما ترغبين سأخرج أنا ونورا الآن .

خرجت ونورا وطلبت من الخادمة أن نقابل والدة فرح .

ـ لا تسعني الكلمات كي أشكركما لقد أصبحت فرح متصالحة أكثر معنا ,لا تغضب إن ناداها أحدنا بإسمها ولا تثور كما كانت من قبل .

ـ لكن ربما ستواجهين اليوم رد فعل مغاير منها .

نسرين تنظر إلينا بفزع :هل حدث مشكلة بالعلاج ؟

ـ أبدا ولكن العلاج النفسي ليس مجرد جلسات سريرية لإراحة المريض أحيانا نحتاج لصدامه لاكتشاف حقيقة ما .

ـ هل لي دور فيما تنوين فعله ؟

ـ نعم ستشاهد وتسمع فرح السي دي بعد خروجنا وستدونين لنا ملاحظاتك عن كل تصرفاتها.

ـ اتفقنا

ودعتنا نسرين ونظرت لي نورا : تعاملينني كالأصم في الزفة يا شهد .

- أبدا صدقيني ولكن ما أظنه يسيء لنسرين وزوجها ولا يمكن أن ألصق بهما اتهاما كهذا قبل أن أتأكد من رد فعل فرح اليوم .

- وإن كان هذا صميم عملي المجتمع المحيط بالحالة .

- هذا بالضبط ما سنتفق عليه الآن ، أريدك أن تفكري في خطة تجعل فرح في مأزق وتضطر للتصرف بطبيعتها فينكشف سرها .

- أعدك سأحاول .

عدت للمنزل أدون كل ما وصلت إليه اليوم من معلومات ...

وصلتني رسالة على تطبيق" الواتس آب"

أريدك في أمر هام .. من فضلك أتصلي بي .

- ما بك تتحدث بشكل رسمي ؟

- أعتذر لمضايقتك ..لم أكن أنوي التطفل عليك .

ضحكت :ماذا تقول ؟

- : أنا بت أعرف أين أنا في حياتك ولكن والدتي مصرة على حضورك حفل عيد ميلاد أخي الصغير ولم أرد أن أخجلها .

- كل سنة وهو طيب ، أين ستحتفلون ؟

- في الفيلا .

سأجيء إليك في الثامنة مساءا بإذن الله .

ذهبت لأضع ملابسي في الغسالة وأطهو طعام الغداء، أنا لم أعتد تناول الوجبات بانتظام أأكل قدر حاجتي للطعام ولكن روايات فرح التي تحكيها عن علياء أصابتني بالجوع الذي لا يشبعه تلك الأصناف التي أعدها الآن المعكرونة واللحمة المفرومة ليست كافية، هل أطلب بيتزا؟ أنا اشتهي طعاما بمذاق خاص غريبة تلك الطفلة التي تستطيع بكلماتها أن تتحكم في شهيتك بل وتحدد ذائقتك في الطعام ،تحرضك على الفعل دون أن تبذل أدنى مجهود ،فقط تحكي بنكهتها .

صوت الهاتف أزعجني برنات متواصلة .

- ألو خير .

- لا أستطيع السيطرة على فرح لقد جنت ..أرجوك تعالي بأسرع وقت ممكن .

فرح كانت تحطم السي دي بهستيريا

تصرخ: بكرهك يا جبران بكرهك

سقطت مغشيا عليها وارتفعت درجة حرارتها.

اتصلنا بطبيبها الذي كان يتابع حالتها عندما كانت محمومة جاء وضعها في حمام ماء بارد الحقيقة أدهشتني قسوته في التعامل مع الحالة وأدهشني أكثر صمت الأم حيال ما يفعله.

- كان من الممكن استخدام أي نوع من الخوافض وكمادات .

الطبيب مبتسما : فرح تعاني من حالة مرضية غريبة إذا أصابها ارتفاع في درجة حرارة جسمها يصل لأقصى الدرجات التي لا يتحملها بشر .

نسرين بين دموعها : أنا عانيت مع فرح أياما حتى استعدتها بعد الحرارة التي أصابتها .

- أعتذرحقا ..أنا أسفة لم أكن أعرف أن الصدمة ستوصلها لما صارت عليه .

إنها المرة الأولى التي أقدم فيها اعتذارا بهذه النبرة المنكسرة ،كم أنا غبية وفاشلة كيف أفعل هذا بمريضتي كيف !

الطبيب : وضعها الآن مستقر لا تشغلي بالك ،هي لن تعود لما أصابها مسبقا لكن كل ما أردت توضيحه لك أنها تملك استعدادا داخليا لذلك .

فرح مستسلمة للنوم لكن ربما تحلم فكانت تقول :مش هسامحك بكرهك.

طلبت من نسرين الجلوس للحديث بعدما انصرف الطبيب

- أعتذر عما سأقول ولكن هناك سؤالا لا يمكن أن أعرف إجابته إلا منك

- أي سؤال سأجيبه إنها فرح قرة عيني .

ترددت كثيرا وتلعثمت ولكن استجمعت شجاعتي : هل خانك زوجك ؟

نظرت إلى مندهشة :اعتذر ولكن كل شيء عنك وعن والدها سيفيدنا في العلاج.

-بالعكس أعيش مع زوجي حياة هادئة ..وكلانا متفاهم مع الآخر ..ولم يحدث أن خانني أبدا ..زوجي إنسان ملتزم حياته كلها لشغله وبيته وبنته فقط .

-تمام ..ممكن استأذنك في تدوين كل ما ستقوله فرح وهي نائمة اليوم ..الكلام أثناء النوم له أهمية كبرى .

في طريق عودتي اتصلت بنورا رويت لها ما حدث .

- كنت متأكدة أن فرح شاهدت مشهد خيانة وقررت أن أختبر شكي حملت أغنية" لا تكذبي " لنجاة الصغيرة على القرص المدمج .

- أفضل طريقة بالفعل فكل ما ترويه فرح تنقله عن أحد لا نعرفه ولم نره حتى الآن ولكن رد فعلها على أغنية هي خبرة جديدة تخص فرح الطفلة .

- وكيف كان رد فعلها ؟

- تقول أنها كانت تسمع وتتأثر بالكلمات (لا تكذبي ..إني رأيتكما معا) في البداية كانت وديعة وبكت (عيناك في عينيه ، في شفتيه) ثم أصبحت نظراتها أكثر شراسة كأمرأة كبيرة لدرجة أخافت نسرين فهاتفتني .

- لا أصدق جرأتك يا شهد في السؤال الذي وجهتيه لنسرين .

-الحقيقة هي تقبلته بصدر رحب .

- ولكني لا أصدق ما قالته ربما تريد أن تخفي عنا الحقيقة .

- لماذا أنا لست جهة تحقيق معها ،وإن كذبت فهذا ضد مصلحة فرح .

- ربما يصب في مصلحتها هي ..تريد أن تخفي شيئا .

- كلامك أقلقني ولكني لا أشك في هذه المرأة، تحليلي النفسي لها جيد .

- كثير منا على قدر كبير من الثبات الانفعالي ولكن تحت وطأة ضغط مجتمعي معين أو حاجة ملحة نخطئ .

- لدرجة الخيانة ؟!

- الخطأ مرة واحدة لا يصنف على أنه صفة في الإنسان يمكنك استكشافها من تحليله أنت تعرفين ما أقول .

- معك حق يا نورا .

- إذن علينا أن نذهب بنفسنا لتدوين ما تقول فرح وهيا نائمة سأرتدي ملابسي ونذهب معا.

- حتى لا تشعر نسرين بنيتنا ، اتصلي أنتِ وقولي لها إنك اكتشفت أن هناك جزء ما يتعلق بعملك يستدعي وجودك في اللحظة الآنية.

هاتفت عمر :حبيبي يجب أن أذهب الآن لفرح لأتابع حالتها في المنزل إن تأخرت ربما لا أتمكن من حضور حفل الميلاد .

-لا عليك حبيبتي ..المهم عملك .

- اعتذر لوالدتك بالنيابة عني .

- لا اعتذار هكذا بالكلمات.. لا يكفي، نصيبك من التورتة محفوظ .

- إن كان كذلك سأهاتفك غداً .

- سأنتظرك حبيبتي بالتوفيق .

ترى ما السر وراء رد فعل عمر المغاير لطبيعته هل هذا عمق إدارك منه أوصله إلى ضرورة التغيير أم مجرد محاولة سطحية غير مجدية ؟

فتحت لنا نسرين الباب وعيونها مازال يحتلها الحزن والقلق : تفضلا هي نائمة في حجرتها منذ تركتها الدكتورة شهد .

كانت فرح نائمة في وداعة حتى خرجت منها كلمات أربكتنا أنا ونورا ، ثم بدأنا التدوين .

إنت خائن يا جبراان....تريد أن تحبسني لماذا ؟ عذبتني لماذا ؟؟ متعبة أنا ...عطشى ، أحضروا لي مريم أنا أريد مريم. ... هذا الرجل لو رأيته ثانية سأقتله ، لا أريد سلاحا في هذا البيت ، أخفوا الأكل ، رحمة الله عليك يا نصار ، نصار ، نصار.....اتركوني لحالي ، أريد الرجوع لبيتي

نظرت إلى نورا في صمت يشي بفيض من تساؤلات .

نسرين بشغف : ما الأخبار ؟

- هل عندك تفسير لهذه الكلمات المتقاطعة ؟

- أبداً .. لا أفهم منها شيئا لكنها نفس الكلمات التي كانت تهزي بها في المشفى وهي محمومة .

وضعت نسرين وجهها في كفيها : تعبت يا الله أرحمني .

اقتربت منها : أهدئي العلاج النفسي يلزمه وقت وصبر .

ـ أقسم إنني لا أتورع لا أنا ولا أبيها أن نأخذها أفضل المصحات في العالم ولكن أنا لا أفهم إن كان ثمة أمل فيما تمر به ،لقد تباعدت عن كل الجيران والأهل وأنعزلت وحدي خوفا من أن يسمع أحدهم ما تقول ،وأنا أمها ليس عندي أي تفسير لذلك .

ـ الحقيقة ما قالته فرح اليوم غاية في الأهمية ،في يقظتنا ممكن أن نؤلف حكايات أو نروي عن أحد نعرفه ..لكن النوم حالة لا وعي ..تستطيعين أن تجزمي أن كل ما قالته صحيح .

نظرت نسرين لنورا بفزع .

ـ باختصار فرح تعاني حالة من تملك شخصية غير شخصيتها ..تعيش داخلها ،وعلى قناعة تامة بها في وعيها وعدم وعيها .

نسرين وضعت يدها على فمها : هذا يعني أن ابنتي ضاعت .

ـ كل شئ في الدنيا له حل ..ولم يخلق الله داء إلا وخلق له دواء .

ـ أنا أقترح أن نأخذها للطبيعة .

ـ تحديدا إلى قرية ريفية .

ـ سأخذها بيت خالتي في ناهيا .

ـ ولكن إن حدث معها أي صدام وارتفعت حرارتها كيف سيصل لها الطبيب هناك .

نورا ضاحكة : قريتنا بها أطباء مهرة ..لقد تغيرت القرى كثيرا عن تلك التي تحكي عنها فرح، بالإضافة لأن ناهيا من أقرب القرى إلى القاهرة .

ـ لن تحتاج لأطباء أنا لن أكرر تجربة قاسية كتلك معها دون احتراز بالعكس تماما ،نحن نسعى الآن لتفريغ شحنة سلبية داخلها .

ـ إن استيقظت غدا بحالة جيدة سأعدها للرحلة وأعد نفسي .

ـ معذرة سنصحبها أنا ونورا فقط وجودك سوف يشكل علامات استفهام في القرية ولن يفيد فيما نسعى إليه ..هذا غير أنني مرتبطة بموعد غدا ،سنأتي لاصطحابها بعد غد بإذن الله .

ـ سيارة مجهزة بالسائق ستكون تحت أمركما .

ـ أشكرك ،عندما تستيقظ فرح شاركيها أي لعبة تحبها وإن لم ترد أتركيها ترسم.

خرجت ونورا .

- هذه الرحلة ستكون نقطة تحول في خطة بحثنا عن الحقيقة ، بعدما تركناها تحكي على طريقتك طوال الأيام الماضية ،كان يجب أن نضعها في بيئة مماثلة لما تروي عنه .

- الحكي بعد لم ينته ، ولكننا إما أن نخرج من هذه الرحلة بإقناع فرح أن ما تحكي عنه محض التباس وتقمص أو نغير نحن أفكارنا حيال ما ترويه .

- كيف ؟

- سنرى

في مساء اليوم التالي اتصلت بعمر لأحدد معه موعد ذهابي لمنزلهم ، جاء في موعده كما حددته حاملا باقة من ورود باللون الأحمر تتوسطها وردة صفراء .

- قلبك ينبض بالحب وتخشى أن تفتقده .

- ليتك تقرأين عيوني كما تقرأين الورود بين يدي .

استقبلتني والدة عمر بحفاوة

-يا ابنتي أريد أن أفرح بكما وأرى أحفادي عما قريب .

- أحصل على درجة الماجستير أولا .

- لا تتعبي نفسك بالحديث معها رأسها أصلب من الحديد .

- وهل الحديد جميل لهذه الدرجة ؟!

- جميل وجذاب ومغرور ورائع ومتألق .

نظرت إلينا أم عمر : ما أجملكما أستعيد معكما ذكريات شبابي .

- أبي كان يجيد الحب أليس كذلك ؟

الأم في خجل : زماننا كان زمنا للحب .

نظرت لأم عمر متسائلة هل كانت تعرف شيئا عن التعب والشقاء الذي عانته علياء في نفس زمانها أو ربما كانت تعرف علياء نفسها ؟ ، ما هذا ؟هل جننت أفكر في الأمر وكأن علياء موجودة ، ماذا لو كانت علياء موجودة ؟!

- من شغلك عنا ؟

تواريت خلف كلماتي : ما أجمل أغاني هذا الزمن .

ـ ما أجمل تورتة البيتي كروكر

وضعت لي أمه قطعة في الطبق

ـ لديك حق ..إنها المرة الأولى التي أتذوق فيها تورتة بهذا المزاق .

ـ أنا أصنعها بنفسي كنا نشتريها من تركيا ب 270 دولار وهنا في مصر لا أجدها بسهولة .

صمت احتراما للتورتة التي يعادل ثمنها راتب معيد جامعي .

ـ سرها في حشو المارشميلو والكراميل وشيكولاتة نيوتيلا وآيس كريم هانج دايز

ـ إنها تحوي أغلى وأرقى أنواع الشيكولاتة والآيس كريم .

ـ والكيك أيضا لا تصنع إلا من الكيك الإنجليزي الفاخر .

ـ هل تظنين أن نوع الطعام الذي يتناوله الإنسان وطريقة تناوله من عوامل التحكم في شخصيته ؟

ـ الشراهة في الطعام تناقد الإبداع حد علمي .

ـ أختلف معكما فطريقة تناول الطعام تحددها البيئة المحيطة بالإنسان وذائقته أيضا هناك مبدعون وعظماء خرجوا من بيئات تتعامل مع الأكل على إنه مصدر المتعة الأعظم .

ـ ربما كانت لهم طريقة مغايرة في اختيار طعامهم .

ـ أنت الوحيدة بيننا التي يمكنك الإجابة .

ـ الحقيقة هذا السؤال من الممكن أن يكون عنوان بحث لنورا صديقتي هو خارج تخصصي ، وستحتاج فيه اتباع منهج الاستقصاء .

ـ هكذا ستصلي إلى الإجابة بعد شهور ، فعليها تحديد الشريحة المجتمعية التي ستطبق عليها التجربة بأكبر عدد متاح .

أنظر لعمر بانبهار ، كل هذا التغيير من أجلي ، ليس تغييرا سطحيا كما كنت أظن ..هناك شئ ما حقيقي دفع عمر لهذا التحول ، أنا أثق فيما أقول .

ـ بدأت أقرأ في علم مناهج البحث كنوع من الثقافة .

عمر الذي كان يحدثني عن الجن وعلاقته بفرح والذي عاش في هذا الترف الذي استشعرت أنه أفسده ، والمفارقة أنه كان الدافع وراء تمسك أمي به دون غيره بينما كان حائلا بيني وبينه ولولا إصرارها على خطبتي له كي توافق على تركي أعيش في القاهرة لأستكمل دراستي ما كنت وافقت على هذا الإرتباط خاصة وأبي خرج من كدر حياتي تماماً بعد انفصاله عنها وتركني أؤدي فيلم حياتي وحدي .

الأم :لا تجعلا العلم والتعلم كل حياتكما أسمعا نصيحتي أنا أكبر منكما في العمر وعلمتني الحياة أكثر مما خبرتم، تمتعوا أخرجوا شاهدوا كل جديد لا تتركوا يوم يمر ولم تمارسا معا شئ مهما كان تافها .

خرجت من جلستي معهما استنشق نسيم الشوارع وأسمع أهازيج المارة طلبت من عمر أن نترجل سويا فمنذ عرفته والسيارة محور حركته .. كانت السماء تمطر ..ولكنه لم يرفض طلبي ..ضممت يدي في يده كحمامة بيضاء ..تعمّد ألا يطلق سراحها فطوقها .

عدت إلى المنزل ..أنظر في المرآة ..فأرى وجهيَ وقد تغيرت ملامحه ..وجسدي يرتجف كما لم يحدث أبدا ..البرد قارس ..ولكن قلبي كان أشد برودة واليوم استعاد دفئه ..أخشى التورط في الحب منذ كنت مراهقة ..أمي تقول الحب أكبر ذنب يقترفه إنسان ..الزواج عن حب مصيره الانفصال ..الحب يضيع بعد الزواج ولا يبقى سوى المشاكل ..هذه هي تجربتها ..وبالرغم من تعليمي الرفيع المستوى إلا أنني انحسرت فيها ..نعم أعترف أحتاج لعلاج نفسي ..علاج من نوع خاص ..ترياق من حرفين ..

له نكهة الأحلام وصهوة المطر حرفان يعنيان الغرق في لب صدفاته كلما حاولنا تقشير نمور شراسته يخمشنا دلال الباء وكلما مسحنا دقائق الصمت بابتسامة الأصبع رسمنا لذة الطالع قطفنا ثمار الحاء .

تفاءلت بفرح فمنذ دخلت حياتي غيرت طالعي .

في الصباح أعددت السندوتشات والحلوى وكل ما يلزمنا لكي تستشعر فرح أنها ذاهبة للترفيه عن نفسها في رحلة حقيقية ،ذهبت ونورا وكانت فرح مستعدة في السيارة ،توجهنا إلى ناهيا .

كانت فرح سعيدة وملامحها هادئة ومنذ انتهى الحضر ووصلنا طريق كرداسة وبدأت معالم الخضرة تظهر كانت ملامحها أكثر انتشاء .

هاتفي يهتز في الشنطة ..إنها رسالة من عمر ..حبيبتي أنا في الطريق ساعة وأكون هناك .

نظرت لنورا فرحة: عمر فاجأني بأنه سيقضي اليوم معنا.

ـ بل أنت من فاجأتني يا شهد أهو عمر الذي نعرفه الذي سبّب مجيئه كل هذه السعادة أم آخر لا أعرفه .

نورا معها حق فيما تقول ولكن كيف أشرح لها ما حدث !

وصلنا ،خرجت فرح من السيارة بصحبة نورا كانت تنظر إلى كل ما حولها بتأمل ولم تنطق بكلمة واحدة ..كانت فرح تلف في وسط الأشجار تتأملها وهي تتحرك بحرية وانطلاق .

وصل عمر ، تبادلنا السلام ودخلنا إلى بيت خالة نورا .

تناولنا فطورا ريفيا فطير مشلتت جبنة قريش مش بيض قشدة وعسل ،لاحظْت عمر وهو يتابع كيف تأكل فرح بنهم وشوق .

ـ تسلم الأيادي .

ـ محرومون في المدينة من هذا الطعام .

الخالة : إن دلتني نورا على بيتك أنت والباشمهندس سأعد الطعام وأرسله لكما كل أسبوع.

ضحكت : إن كان كذلك أوصيك بالعيش بخبز البتاو .

ـمن أي قرية يا شهد ؟

ـ سوهاج مطاي .

ـ الصعيد والفلاحين يعشقون البتاو .

نظرت إلينا فرح بعيون تلمع بالغبطة ولكنها توقفت عن الأكل فجأة وخرجت .

هرول عمر خلفها بينما ذهبْتُ ونورا نغسل أيدينا ولحقنا بهما .

توجهت فرح إلى بيت ريفي مجاور لبيت الخالة تعجن فيه الجارة الخبز على التنور المعد لفرد العجين لإعداده للتسوية وبعض الأرغفة كانت قد دخلت الفرن البلدي الموقد .

ـ يمكنني المساعدة ؟

نظرت الجارة لنورا : كيف حالك يا نورا وكيف هي الدنيا في مصر ؟

ـ القاهرة كما هي زحام في كل مكان وهواء خانق .

ـ لو سمعتِ كلام أبيك وتزوجت منذ انهيت الجامعة لكان لديك أولاد مثل الجميلة ـ هل صحيح أنك من الحلوة ؟

ـ بنت صديقتي ، ثم أنا لو كنت تزوجت ما كنت أنجبت طفلة في عمرها .

الجارة ضاحكة : ثرثارة.

فرح كررت سؤالها بإلحاح :ممكن أساعدك ؟

شمرت فرح عن أكمامها وفتحت رجليها وجلست كما الجارة تماما وأمسكت بقطعة من العجين ولفتها بشكل احترافي ثم مدتها على التنور .

نظرت لها الجارة بغبطة قائلة : ما شاء الله يا ابنتي ما هذه المهارة ؟ من علمك ؟

ونطرت الجارة لنورا : هذه الطفلة الصغيرة أشطر منك ، وأنت في عمرك هذا أبدا ما خبزتِ رغيفا .

نفضت فرح يديها من العجين : أخبز منذ زمن كل يوم في الصباح .

نظرت لها المرأة بدهشة : أنت تسكنين قريبا من هنا ؟

ـ لقد تأخرنا يا فرح هيا .

تجاهلتها فرح والجارة كانت متعلقة بأثواب الحديث .

ـ لا لكن أنا زرت ناهيا مرة في السنة التي اختفى فيها سائق القطار .

ـ هذه الحادثة مر عليها خمسة عشر عاما ،قبل أن تولدي .

مسكت فرح من يدها :هكذا ستقلق أمك.

ـوالدتي ماتت قبل أن تولدي

ثم نظرت للخالة بثقة : أنا أعرف من القاتل .

الجارة : كيف ؟ لا أحد يعرف حتى الآن إن كان مات أو هرب .

تدخل عمر وحمل فرح بين يديه وتوجه بها إلى بيت خالة نورا .

نظرت لنا الجارة : ما سر هذه الطفلة ؟!

نورا : مصابة بالجنون .

الجارة : لا أبدا هي لا تتكلم كالمجانين وتصرفاتها غاية في العقل تتصرف كالراشدين لا كالأطفال وما قالته حدث فعلا ، هذه الطفلة يتلبسها جن .

-الحقيقة نحن لا نعرف حتى الآن ماذا حدث لها ولكن هذا الطريق خرافات وشعوذة.

الجارة : الجن ذكر في القرآن وقد قيل أنه يسترق السمع من السماء ويخبر الإنسان بما سمع .

عدت أتذكر حديثي وعمر عن الأمر وما قاله دكتور حسام ..يا الله أنا في متاهة لا تنتهي .

- نعم ولكن هذا الإنسان من يسعى إليه بارتكاب المحرمات لكي يبلغه الأخبار ولكن طفلة كفرح كيف لها أن تسعى لذلك .

- ربما تلبسها هو لسبب غيبي لا نعرفه .

- هل جننت يا نورا كيف تفكرين هكذا ؟! ..لا دلائل لا براهين .

طأطأت نورا رأسها للأرض ،كما فعلت في مناقشتي مع دكتور حسام .

تركنا الجارة وذهبنا لفرح

أقتحم عمر ما يجول بخاطري : لديك حق يا شهد هي حالة محيرة فعلا ..لا أصدق ما قالت .

نورا : ماذا لو كنت سمعت ما سجلناه لها من حكي يومي تقشعر له الأبدان لأمرأة في عمر جدتي .

رويت له ما حدث مع الجارة فقال عمر .

-هذا أمر سهل معرفته الآن .

- كيف ؟

-الجن يعرف ما حدث وما يحدث الآن ولا يستطيع معرفة المستقبل ..فلنسألها عما يحدث الآن لأمها ونرى .

إن سألتها عن أمها ستجيبني بحدة كعادتها فلأسأل بطريقة أخرى .

- هل هناك أحد من أفراد عائلتك قريب من هنا الآن ؟

- أنا لا أعرف عنهم شئ منذ عام .

- لا يمكنك الآن سماع أي شئ يخصهم ؟

- لا أنا أعرف كل ما عشته معهم والآن أنا لست بينهم .

نظر عمر لفرح قائلا : من هو القاتل ؟!

- خليل .

-من خليل ؟

فرح تنظر لنورا صامتة .

نظرتُ لفرح بشفقة: لا تتحدثي عن شئ يزعجك .

-أنا أعرف أين دفنه وأعرف كيف قتله بضربة في الرأس.

عمر : أين ؟

- تعالوا معي .

خرجنا نسير خلف فرح وهي تسير في طريق تعرفه حتى وصلت لشجرة تبعد عن بيت الخالة بمسيرة أربع دقائق أشارت إلى الأرض وقالت أحفر هنا .

عمر ينظر إليّ :لابد من فأس .

- حتى لو أحضرت فأسا أنت بالتأكيد لا تجيد استخدامه من الممكن أن يجرحك .

فرح بحماس : أستأجره وأنا سأساعدك

نظر لها عمر مبتسما :يداكَ الناعمتان لا تجيدان العنف .

- كنت أزرع القطن مع الحاج درويش ولم تخشوشن يدي ..كنت أجمع زجاجات العطور الخاوية وأعبئها بالليمون والجلسرين وزيت الزيتون والمسك لهذا أنظر كم هي جميلة ورائحتها طيبة .

عمر مبتسما بسخرية : فعلا ناعمة كبشرة الأطفال .

تركنا عمر وحمل دهشته وذهب يطلب فأسا .

تدندن فرح لسيد درويش ..(الحلوة دي قامت تعجن في الفجرية)

نورا: رايقة .

نظرت لفرح بتوتر: إنها الحالة التي يتوقف عليها منحي درجة الماجستير ،وحتى الآن تزداد خيوطها تعقيدا وتشابكا .

عاد عمر ومعه أحد المزارعين .

- هذا الرجل الشهم عندما عرف أهمية ما فقدناه هنا جاء ليحفر لنا .

اقتربتُ من عمر وسألته إن كان قد شرح له أننا نحفر لاستخراج هيكل عظمي إن صحت رواية فرح .

عمر هامسا : بالطبع لا، هل جننتِ ؟!..في الغالب سيسفر الحفر عن لا شئ ..وسأعطيه حقه بزيادة .

حفر الرجل ولم يجد شئ .

الرجل : اعتذر يا باشمهندس لم أجد شيئا .

فرح بعصبية : لا ..أنا واثقة مما أقول أحفر أعمق .

ينظر لها الرجل بريبة .

عمر : أطفال وأنت تعرف مزاحهم .

- ربنا يباركلك في عمرها .

وضع عمر المال في جيب الرجل ولكنني استوقفته

-من فضلك أحفر أعمق .

نظر لعمر فأجابه عمر بعينه أن إفعل .

الرجل : ما هذا الصوت يصطدم الفأس بجسم صلب .

عدنا متعبين جميعا كان يوما شاقا ،أعدنا فرح إلى أمها دون أن نحكي لها مما حدث شيئا وإلا ماتت ذعرا ،ومتأكدة أن فرح لن تحكي أي شئ فذاكرتها لا تتسع إلا للماضي أما الحاضر الذي تعيشه أصبحت لا تعرف عنه شيئا ،كحالة أمي تماما منذ تركت أبي بالرغم أنه كان اختيارها .

دخلت أتحمم وأزيل آثار اليوم برمته عن جسدي ..وخرجت لأعد كوبا من الشاي ..جلست في نفس الموضع الذي كان عمر يحتسي فيه الشاي يوم زارني ..وضعت قطعة من النعناع

الطازج في الكوب ..أنا لا أحب النعناع ولكن عمر أذاقني كوب الشاي الذي أعدته له خالة نورا وأعجبني ..إنها المرة الأولى التي أرتشف فيها من كوبه ..الحقيقة أنا أتقزز من مجرد الفكرة ..لكن تأثير وجوده بجانبي وحمايته لي في ذاك اليوم كان غير اعتيادي ..هل الحب يعيد ترتيب علاقاتنا بالأشياء من حولنا ؟!

في الصباح ذهبتُ ونورا لفرح

استقبلتنا بابتسامة وجلسَتْ أمامنا في هدوء وبدأت الحكي .

- انقضى شعبان ورمضان وكريم على حاله فخرجت لأوفي نذري لمقام سيدي علي الصياد والشيخ سعيد .

وأبتهل إلى الله ليخفف عنه ما أصابه ، لحقني الشيخ سعيد إلى هناك ،منذ خرج خلف نجلاء وقال لها أنه كان يراها تذهب بصواني الطعام لأكرم فواز عضو مجلس النواب في كل عودة لها من المستشفى الجامعي بدمياط ، ورآها توافق على الزواج منه مقابل خمسة أفدنة وبيت بأسمها ،أصبحت أناديه بهذا اللقب فما من أحد في البلد يعرف هذا العقد ،لقد سجلته في الشهر العقاري في المدينة بعيدا عن موظفي الشهر العقاري هنا خوفا من الحسد ،لا أعرف كيف رآها سعيد ولكن أحلامه كلها رؤى وربما يسمع ما لا نسمعه نحن، فكثيرا ما كنت أراه ينصت لأصوات لا يسمعها غيره عند زيارتنا المقابر ولما كان اليوم أول يوم في عيد الفطر وحتى لا تنقطع لي عاده أعددت (الشوريك) المخبوز والملفوف على شكل ضفيرة بالسكر صباح أول يوم العيد كما أعتدنا ،واشتريت البرتقال واليوسفي ووضعت السبت فوق رأسي،وأعطيت منهم لسعيد كي يوزعه بيده الطاهرة على الفقراء ،وطبعا لم أنس أن أعطية فطيرة السمسم المستديرة مع البيض المسلوق لأرى ابتسامته المشرقة قال سعيد : صوت ناس تصرخ تعيط

-أنا لا أسمع أي شئ .

ولكني أوقن أن ما يقوله هو الحق .

عدت الدار وصوت صراخ مريم وسليم يملؤه

- تأخرتِ علياء .

ـ لقد أرضعتهما قبل ذهابي وغيرت ملابسهما أيضا .

ـ الحفاض تبلل .

ـ وضعت مشمع أسفلهما وعليه قطعة قماش .

ـ كفاكِ جدلا ،أذهبي لتوأمك .

سحبتُ ملابسهم الداخلية وذهبتُ لأوقدَ الوابور ، وضعت غلاية كبيرة من الألومنيوم وبها الماء والصابون والزهرة حتى يصبح الأبيض ناصعا ،بعدما شطفتها في إناء آخر وعصرتها جيداً.

نشرتُ الملابس على الحبل بنظام..القطع الصغيرة بجانب بعضها والأكبر في الصف الثاني وهكذا ،فالجيران هنا يحلفون بنظامي ونظافتي ولو رأوا أي قطعة من الملابس ليست نظيفة على الوجه الأكمل لعايروني بها، فلا أنسى ما قالته حسناء حين نشرت سروال سعيد مائلا للصفار : هل خابت علياء؟! ..ماذا لو أنجبت مثلنا ثمانية وعشرة ..خمسة أبناء فقط وتنشر غسيلها متسخا !

عدت لأجد الصغيرين يغطان في نوم عميق ،وكريم ليس في فراشه ولا أبي بحثت عنهما في الدار ثم خرجت لأجدهما في الأرض الخلفية للدار ،جلست بالقرب من الشباك أستمع ما يدور بينهما .

ـلا تحزن يا كريم

كريم صامتا ينظر إلى أبي بحزن .

ـأشعر بما تمر به الآن ..صدقني يا ولدي النجاح الحقيقي ليس أن تحقق ما تريد ولكن أن تجعل هزائمك انتصارات وقتها ستجد كل ما كنت تريد صار بين يديك ، قف فوق ما يؤلمك وأجعله سبب قوتك هكذا صنع العظماء مجدهم .

ـ أعرف يا جدي ولكن ليس كل ما نعرفه قابل للتطبيق .

ـأنظر يا كريم إلى هذا الساق تعرف ما هذه الزهرة التي تلتف حوله ؟

ـ لا أعرف أسمها .

- ساق القطن يا كريم ينمو عليها زهرة الحامول والتي إن وصلت إلى ثمرتها التفت حولها وقتلتها .

- كيف تتغذى عليها ثم تقتلها .

- هذا ما حدث معك يا بني ولكنك لن تتركها تقتلك .

- أعدك .

- هل تعرف يا كريم كيف جاءت عائلة درويش إلى هنا ؟،جدك كان مقاولا أيام الإنجليز فأخذ منهم مقاولات عدد كبير من مشروعات الصرف ،وكان مفتش الصرف الإنجليزي يمر لمتابعة سير العمل فتصرف جدك تصرف أغضبه، فصاح المفتش في جدك وشتمه فرد عليه المفتش قائلا :كيف تجرؤ أن تسبني أنا مستر ويلي .

فقال جدك : وأنا مستر خليفة

فأوقفوا أعمال المقاولة ونفوه إلى هنا لكنه لم يبك يوما واحدا بل تزوج من الكفر وأنجب وأسس العائلة التي انتشرت في كل قرى الزرقا وفارسكور وكفر سعد.

جاءني كريم بعد حديثه مع جده يسألني في أن أخطب له من عائلتي فابتسمت وقلت له في هذه الأيام وما قبلها وعلى طول الزمن الشاب هو من يختار عروسه ، غير أنه أخبرني بثقته في اختياري ، لم أكن بحاجة لوقت طويل في اختيار العروس المناسبة فبنات العائلة يتمتعن بالأدب والجمال وحينما أشرت إليه بإحداهن لم يناقشني وأبدى موافقته ولأنه كان مستعدا قررنا في اجتماع عائلي أن يتزوج كريم مع جمال في نفس الليلة وقد كانت هذه الواقعة نادرة الحدوث في قريتنا أن يقام حفل عرس مزدوج ، كان عرسهما سيرة أهل القرية، فلقد أعددت له مع أخواتي وجاراتي أصناف الطعام قبل الفرح بثلاثة أيام ذبحنا خروفين وخمسة جديان والديوك الرومي والبط والتورتة الثلاثة أدوار التي تتميز بها نسوة عائلتي والمهلبية والحلوى بكل صنوفها ،واشترينا للعروسين شبكة من الذهب الأصفر المضفر..سبع غوايش وثلاثة خواتم وسلسلة تتدلى منها (ما شاء الله) كبيرة ,وبالرغم من أن هذا قد أرهقنا ماديا بل وأثقل كاهلنا بديون إلا أن هذه العادات لا يمكن أن تتغير مهما بذلنا من أجل تغييرها من جهد .

مرت السنوات وأسس كريم أسرته الجديدة في دمياط وأنجب سعد الذي ملأ علينا الدار وكان سعيد الأكثر فرحا به فحروف أسمه المتشابهة معه كانت تستحضر ابتسامته ،ويكفي أنه ابن كريم أكثر من كان يحنو عليه في الدار، بينما عاش جمال معنا هنا في الدار فلم يستطع تأسيس بيت بمفرده وكنت أتعامل مع زوجته كأمها فلا أنقص من احتياجاتها شيئا ، لكنها لم تكن تبادلني شعورا مماثلا ،لا ألومها فهي من عائلة تدلل فتياتها لثرائهم الكبير.

اليوم الجمعة سأعد كل الأصناف التي يحبها كريم وجمال كلٌ ما كان يرهقني شقاوة مريم وسليم فهما لا يكفان عن اللعب .

- إلى أين ستذهبين يا أمي ؟

- سأذهب لملء الماء من الطنبور لا يوجد نقطة ماء في الدار والطعام يحتاج الماء لإعداه ..لا تتركي الدار حتى أعود .

أخذت الأواني لأملأها وقد كان سعيد كعادته يتبعني

- صباح .. موت .

- ماذا تقول ؟!

نظرت لسعيد بعنف :أبصق جهة الشمال ثلاث مرات ولا تتحدث بهذا الكلام مع أحد ،حتى يقع الحلم في الأرض ولا يتحقق .

نظر لي سعيد زامّا شفتيه: موت .

طردت الفكرة من رأسي ووقفت في الطابور لأملأ الماء، عدد من القرى المجاورة دخل إليها الماء في الصنابير ،لكننا مازلنا مهملين لا ماء نظيف في البيوت ولا صرف ومضطرين للصرف في الترعة .

في طريق عودتي نظرت إلى بيت صباح ..أفكر في الدخول للسؤال عنها ولكن منذ زواج نجلاء وأصبحت العلاقة بيني وبينها لا تتعدى السلام كلما جمعنا طابور الطنبور أو الوقوف للغسيل في الترعة،تغلبت على ترددي وطرقت بابها ونبهت على سعيد أن لا يقول أمامها شيئا مما قالها لي، وتأكدت من أنه سينفذ ما طلبت لأنه أمسك يدي بقوة،هكذا يفعل حينما يقرر أن يعدني بشيء طلبته منه .

فتحت صباح الباب وكان يبدو عليها آثار الإجهاد وتسعل بشدة : أهلا علياء ..أشتقتك .

ـ كنت مارة بجانب الدار وفي بالي كنت أنت فجئت أطمئن عليك ،من مدة لم أرك في أي مكان بالقرية .

ـ منهم لله أولاد سليم أرقدوني في فراشي .

ـ هذه تجارة رائجة لا يمكن أن تتوقف حتى لو قضت مكامير الفحم على أهالي القرية كلها .

ـ كل الشكاوى التي يكتبها زوجي وأولادي لمجلس المدينة بلا فائدة المكامير ملاصقة للبيوت والسحب السوداء تغير ألوان ملابسنا وكل شئ حولنا ،حتى أنها غيرت لون بصاقي في المنديل ،ولم يجد كل الأطباء اللذين طرقت أبوابهم مع نجلاء أي علاج لحالتي .

فتحت صباح المنديل القماش الذي كانت ممسكة به وجدت لونه أحمر ممزوق بعروق سوداء.

أردت أن أخفف عنها بمزحة .

ـتذكرين يوم جئتِ لتساعديني في نشر الملابس بينما كنتِ حامل في جمال

صباح مبتسمة : يومها تحول لون الملابس البيضاء للون الرمادي ،فجاء كريم من بعيد قائلا :أتركيها سأنشرها أنا بعد أن تنتهي السحابة السوداء ليلا .

علياء : وقتها ضحكت وقلت له أن السحابة لا تنتهي ليلا بل هو الذي لا يراها لأن الظلام يغطيها .

ـ المكامير لا تتوقف عن العمل ليل نهار .

ـ فتذاكى كريم وقال :إذا سأنتظر للغد وأضعه على الحبل .

ـ قلت له هكذا ستنتظر حتى (تربعن)أمك .

ـ نعم كان سينتظر حتى يمر على ولادتي لجمال أربعون يوما،وتنتهي فترة نفاسي فكان مكمر أولاد سليم في اليوم الأول من دورته التي تعمل لأربعين يوما وتتوقف أربعة أيام فقط نستنشق فيها هواءا نظيفا .

نظرت لي صباح بحزن ومسكت يدي .

ـ سامحي نجلاء وأطلبي من كريم أن يسامحها .

- هذا كلام فات زمانه ..أنا سامحتها من يومها ..نجلاء كمريم أحب لها الخير حتى ولو كان بعيدا عني .

صباح بصوت مبحوح : أصبت بماء على الرئة ونجلاء لم تنجب بعد .

- بإذن الله ستصبحين بخير وتعودين كما كنت .

صباح باكية : كل أولادي لا يقتربون مني ظنا منهم أن مرضي معدي ، حتى نجلاء منعها عني زوجها منذ شهر..كنت أظن أن ارتباطها برجل غني وصاحب نفوذ حماية لها ،كنت أظن أن شهادتها الجامعية كفيلة بأن تحميها سطوة عائلته وتسلطهم ،لكن ما حدث أنها هي من عانت من كل ذلك ولم تستطع فعل شئ ,فكل أهله ينظرون لها على أنها أقل منهم ولا اسم معروف لعائلتها ونسب خاسر لا يضيف لهم شيئا حتى أصبحت منبوذة .

- كفاكِ كلاما ..ارتاحي ..واتركي الأمر لله يدبره .

تركت صباح وأنا قلقة بشأنها وحتى أهدأ أقنعت نفسي أن ذهابي للضريح وإيقادي لدستة من الشمع من أجلها والدعاء عند كل صلاة ..سيخفف عنها فلا شئ بيدي لأفعله .

دخلت المنزل مسرعة في إعداد الطعام فقد سرقني الوقت مع نجلاء حتى جاء كريم وأسرته. قبلتهم أربع قبلات كما هو متبع وجلسنا للحديث .

- أين جمال ؟

- جمال في الميناء فمنذ أن صدر قرار إعادة انشاء ميناء دمياط ولم يعد أبدا في موعده المعتاد .

أبي: أخيرا استشعروا بأهمية الميناء .

- يا جدي أعرف أنك كنت تنتظر هذا القرار مثل جمال تماما .

- يا بنيّ موقع دمياط الجغرافي يجعله أهم ميناء في مصر .

جاء جمال

-كريم ممازحا : قتلتنا جوعا

-أنت لا تعرف يا كريم ..لم أكن أصدق لحظة صب الخرسانة بالمشروع كنت أنظر لها وكأنها عبد الرحمن ابني يوم حملته بين يدي فور ولادته .

- كم رصيف ستكون القناة .

- أربعة عشر رصيف .

- رائع هكذا ستتحمل عددا كبيرا من السفن .

- بالطبع ألا تعرف أن تكلفة المشروع ستصل إلى مئة وتسعين مليون جنيه .

- قل لي كريم وكيف سنتحملهم .

أبي مقاطعا الحديث : هل سنبيع غطاءنا النقدي للمرة الثانية ؟

- لا يا جدي بالطبع ..هذا مشروع بلا ديون دخله سيغطي نفقاته وبشكل سريع جدا .

قررت أن أنهي الحديث : لا كلام على طعام تفضلوا .

جلسنا جميعا لنأكل ولم يطبق أحد منا حتى أنا العبارة التي قلتها .

- يا أمي لقد أعطيتِ زوجتي قطعة بط أكبر مني .

- لن تتغير وتكبر أبدا .

- سأظل طفلا أشاغبكم حتى عندما أصبح في عمر جدي .

- لا تشبّه نفسك بي يا ولد .

مريم : سعيد لا تضع زراعك على رسغي .

سليم : أنا لا أحب البط أريد حماما مثل زوجة جمال .

يمد جمال يده لطبق زوجته في غفلة منها ويأخذ فرد حمام يضعه في طبقه ،فتكتشفه فتمسك يده ثم تأخذها منه وتضعها في طبق سليم ، يضحك الجميع ،

صرخت فيهم ضاحكة /كفاكم مزاحا ..خير اللهم أجعله خيرا .

يطرق الباب فيفتح كريم .

أحد الجيران دعاه كريم للدخول فلا يمكن لطارق باب جاء في وقت طعامنا ونتركه دون أن يشاركنا .

درويش : خذ ملعقة وأجلس هنا بجانبي .

الطارق :أعفوني ..جئت لأبلغكم بموعد صلاة الجنازة على صباح بعد العصر .

بهت الجميع إلا سعيد ، أما أنا فقد جاءني الخبر على هيئة صخرة أقعدتني في مكاني بلا حراك بالرغم من إبلاغي به مسبقا ، فهكذا نحن نتعامل مع الأخبار المفرحة بالتصديق ، والمؤلمة نكذبها على الدوام وندير لها ظهورنا وهذا تماما ما فعلت مع كلمات سعيد .

ـ لقد كنت أكلمها منذ ساعات .

أبي :لا حول ولا قوة إلا بالله

في صباح اليوم التالي بدأت يومي كما اعتدت بعد صلاة الفجر ومعي مريم صعدت إلى سطح المنزل .

جمعت بقايا الطعام الذي تناولناه بالأمس وخلطته بقشر البطيخ ، وصعدت فوق سطح الدار ، وضعت الأطباق التي تحوي الطعام ثم مددت يدي إلى العشة أخرجت منها بطة، فتحت فمها بيدي وباليد الأخرى وضعت حبوب الفول بداخله،كانت مريم تلهو حولي حتى جاءتني وبيدها حمامة من غية الحمام المجاورة لعشش البط والإوز .

ـ أريد أن أطعمها أعطيني بعض حبات من هذا الطبق .

أضحك :هكذا ستموت مختنقة حبيبتي.

ـ لا ستأكل وتكبر بسرعة .

ـ الحمام لا يأكل الفول يا مريم ولا يمكننا إجباره على الطعام نتركه حرا إذا جاع أكل .

ـ أنا أحب أن تعامليني كحمامة .

أمسكت مريم من خصرها ودغدغتها بأصابعي حتى ضحكت : عندما تصبح لك أجنحة ، لكن ما دمت هنا سأعاملك كالبطة ..هيا أريني فمك لأضع فيه حبات الفول.

مريم تمزج البكاء بالضحك وتسحب يدي بعيدا عن خصرها: لا أنا لست بطة صغيرة أنا بطة كبيرة كتلك التي تعلمت الأكل بمفردها وتأكل من طعامنا .

يدخل علينا جمال :صباح الخير يا أمي.

ـما الذي أيقظك في هذه الساعة ؟

ـفكري مشغول .

- ما بك ..أخبرني ولن أخذلك .

- طلبت مني زوجتي التقديم في قرعة الشقق والأراضي بدمياط الجديدة وقالت أنها إذا جاءت من نصيبنا سننتقل للعيش إلى هناك .

- وماذا يضايقها في العيش هنا ؟ هل قصرت معكما في شئ ؟

- تعاني الهواشم من مشكلات كثيرة يا أمي، وأنت سيدة العارفين .

- لكني لا أكلفها بعمل أي شئ كما تفعل زوجات الابن في بيوت كل الجارات، لا تخبز لا تذهب للسوق ولا للترعة، فعن أي معاناة تتحدث ؟!..كل ما تريده هو أن تأخذك بعيدا عني وأنت تسمع لها .

- أعلم مشاعرك ولكن قولي لي لماذا قررت الدولة إنشاء دمياط الجديدة .

- ليذهب من ليس لهم بيوت للسكن فيها .

- يا أمي ..هذا المشروع وكل المشاريع التي تطرحها الدولة كمدينة العاشر من رمضان والسادس من أكتوبر هدفها تخفيف الضغط على الأماكن المماثلة للهواشم .

- أفعل ما شئت .

قبل جمال يدي : أدعي لي أن يوفقني الله فيما يحبه لي .

نظرت لجمال بحزن هكذا سيفارقني رجلاي اللذان أنجبتهما ولن يبق معي في الدار سوى سليم ومريم وسعيد بالرغم أنه يكبرهم سنا لكنه يحتاج لرعاية مثلهم تماما .

نظرت لنا فرح قائلة : منذ عدت من ناهيا وأنا متعبة ولم تكفني ساعات نومي ..لا أستطيع الحديث أكثر .

الحقيقة أنا ونورا كنا حالها فليس كافيا أبدا لكل ما حدث هناك هذه الساعات القلائل التي نمناها جميعا .

خرجت ونورا .

نظرت لنورا في شغف : هل وصلت لشئ ؟

- بحثت في دليل الهاتف منذ عام 90 حتى الآن ولم أجد أي رقم باسم جبران خليل جبران .

صرخت فيها رغما عني : كيف ؟

- أهدئي..ما ذنبي أنا !؟

-أنا مضطربة فاعذريني .

اقتربت مني وهي تربت على كتفي : أشعر بك .

ودعت نورا وذهبت للدكتور حسام لأقص عليه ما وصلت إليه كما اتفقت معه ليلة أمس،قصصت عليه روايات فرح في الفترة الماضية ،واستوقفني لأحكي له تفصيلا ما حدث في رحلة ناهيا بعدما اصطدم الفأس بالجسم الصلب .

- نظرنا جميعا داخل الحفرة لنجد هيكلا عظميا .

- وما كان رد الرجل الذي أستأجرتموه حيال ما وجد ؟

- تمسك برقبة عمر وقال أنه خدعه وعليه إبلاغ الشرطة ، ذهبنا بالفعل وقصصت على ضابط المباحث رواية فرح، ولكنه شكك فينا وطلب إحضار الطفلة ، طلبنا منه أن يذهب معنا لفرح حتى لا تخاف هي إن دخلت القسم..لكنه رفض ،فاتصل عمر بأحد أقاربه ذوي النفوذ ليتصل بضابط المباحث ويطلب منه أن يأخذ أقوالها في بيت خالة نورا ، ذهب الضابط معنا إلى هناك وقصت له فرح روايتها ، كان تقرير الطب الشرعي قد وصل.." ضربة على الرأس أفضت إلى موته."

لولا عمر ما كنا عدنا إلى منازلنا ذلك اليوم، لأن المحضر مازال مفتوحا والبحث جاري عن خليل الذي لا تعرف فرح أكثر من اسمه الأول، وفي حال عثروا عليه سيطلبونا للشهادة وتعهدنا لهم بذلك ..لكن الضابط كان مصرا على معرفة حقيقة ما تمر به فرح ..فما تقوله جعله لا يصدق روايتنا بأنها تعاني من مرض عقلي،وسأل عمر في أن تبقى معه لترشده عن كل ما تعرف عن حوادث شاهدتها في الماضي وتحدد له من الجناه ، بل لقد قال مازحا :ستكون هذه الطفلة فأل خير وسبب في ترقيتي في منصبي باتصالها بالعالم الآخر !

بضحكات مبالغ فيها : هذا الضابط جاهل مثلك.

قلت بضيق:و ما تقييمك أنت يا دكتور للرحلة برمتها؟

-كل ما قالته عن الجثة والرجل المدفون نتيجة حلم رأته بشكل مسبق للزيارة،هذه الحالة يمر بها عدد نادر من الأشخاص يرون الأماكن قبل زيارتهم لها، وبالتأكيد شاهدت هذا المشهد الذي حدث في ناهيا بتفاصيله قبل الزيارة فقصته لكم .

أجبته بدهشة : ما حدث مجرد حلم !

أعرف أن خبرتك كبيرة تضاعف عمري ..ودرست في كتبك عن الأحلام التي تخبرنا بوقائع حقيقية لحكمة ما ..ولكن لم يرد في أي من المراجع التي درستها أن هذا يحدث لطفلة .

- فرح حالة جديدة من نوعها .

بالنسبة لدهشتك لإتقانها العجن باحترافية ..من الممكن أن تكون شاهدت إحدى السيدات تفعل ذلك عن طريق الانترنت مثلا وتعلمت منها فالأذكياء يتعلمون بالمشاهدة .

قلت بإصرار : حركة يدها بهذه الطريقة ورفع الرغيف ومده تحتاج لخبره طويلة وممارسة كتعلم القيادة تماما .

- ماذا تريدين أن تثبتي ؟

بعصبية :أنظر هذه الكلمات المتقاطعة هذا ما قالت في نومها ..هذه الكلمات أثناء النوم أي لا يمكن أن تكون هلوسات .

باستخفاف : من قال هذا حتى الهلوسات تتملك الإنسان أثناء النوم .

- أين دور الوعي إن قلنا أن كل ما تقوله تخاريف وتأليف كما أشرت .

شعرت أن دكتور حسام يحبط من حماسي لاستشعاره بأنني أفكر في الغيبيات كتفسير لكل ما سبق ،وأعرف أنه لا يحيد عن طريق النظريات العلمية فاجأته قائلة :دكتور حسام أنا بعتذر عن هذه الحالة .. هي أكبر من قدراتي .

حسام : تذكري أن هذه الحالة ..تطبيقك في الرسالة ..ولكن بناء على قرارك سأسندها لطبيبة أخرى .

خرجت أشعر بكل شئ حولي يهوى وأنا ثابتة في مكاني لا أستطيع حراكاً ، اتصلت بعمر فجاءني مسرعا غير أني شعرت بالدقائق التي مرت حتى وصل تطول وتتمدد فتلتف حول صدري وتقبضه .

- منذ دخلت السيارة وأنت صامتة .

- لا شئ..اتخذت قرارا مصيريا ..في لحظة انفعالية .

- لا أعرف هذه الصفة فيك.

- هذا ما حدث .

تناول عمر يدي واحتواها في كفه شعرت كم كانت باردة كالثلج عندما استشعرت دفئه وبدأت كل خلجاتي تدخل تقويم الليل وتقيم طقوسه الغارقة في اللذة ،استشعرت بالخجل مما اعتراني، واحمرار وجنتيّ فضح ما بداخلي ،فسحبت يدي فتزلجت على يديه كقطعة ثلج تهوى من السماء وترتطم بالأرض .

- أتساءل هل أنت كباقي النساء ،هل يوجد على الارض مثلك ؟

ابتسمت :كلنا خلقنا من طين يا عمر .

- لستِ من طين ، شهد أنت مخامل نسيم تعتق في لب النبيذ أثمل ملامح الجمال فثمل وصار أنثى بنكهة الشهد ، لو كنتِ كبقية النساء ما تحملتُ معك كل هذا الوجع وأنا أقترب منك ولا أرى إلا ابتعادا ،اشتاقك وأبثك شوقي فيقابلني صدك .

- الله ما أروع هذه التشبيهات ، ولكن لماذا تحملتَني كل هذا الوقت؟ ..كيف لم يصبك اليأس؟! ..قبلك حاول بعضهم اقتحام حصون قلبي وفشلوا ..لماذا أنت الوحيد الذي مكثت للنهاية ؟!

- لأنني الوحيد من بينهم الذي عرفك كما لم تعرفي نفسك .

- لكني رفضتك من البداية ألم تُجرَح كرامتك؟ طالما حيرني هذا السؤال .

- قولي ألم تنزف كرامتك ؟ كنت أعرف أنك لا ترفضينني كشخص بل ترفضين الفكرة من الأساس ..أعرف أنك شخصية نرجسية ترشحك الحياة لقصة بطلتها أنت ..الحب لا قيمة له عندك ..لأنك لن تهبيه لأحد ..هذا الإدراك جعل مني رجل يغير هيئته ليسعد أنثى جاءته على هيئة وجع .

- لكنك لم تعاتبني يوما .

- ولن أعاتبك أبدا ..علمني حبك أن أتغير أنا ولا أطلب منكِ تغييرا ، لن يحدث.

- لكن الحياة منح وعطاء ..هكذا أنا لن أمنحك شيئا يستحق صبرك .

- أبدا لقد منحتيني أكثر مما أحتاج .

- أنا ؟!

- أنا قرأتك منذ اللحظة الأولى ..طاقة الحب التي بداخلك أكبر من أن يسعها قلب ..لكنها مختبئة خلف وجه قطة تخمش كل من اقترب منها فقط لأنها خائفة منه ،ولا تدري أنها وبعد مدة أصبحت هيا مصدر خوف لكل من يحاول اجتياحها.

- ألهذا الحد أنا غبية ؟!

- ألهذا الحد أنت خائفة ؟!

- هل أحتاج لعلاج نفسي؟ ..هل كل ما درسته ليس كافيا لخروجي من أزمتي الداخلية ؟

- أنت لا تحتاجين لطبيب..تحتاجين فقط لمن يمنحك الأمان ويصبر على اجتياز كل مخاوفك ..تحتاجين لمن يرى الكنز الحقيقي المختبئ خلف أسوارك الشائكة ..تحتاجين لمن يخرج تلك الطفلة التي تلحس السكر عن أصابعها وتمارس الحب دون خطيئة الندم مع رجل يطهي خصرها خبزا فتشتهيه ..رجل يشرب عينيها رشفة تلو رشفة ليغتنم احتفالات الأحمر وإقامة ثورة اللهب .

- أحبك .

خرجت الحروف من فمي مترنحة ..أشعر وكأنني كفرح ولدت اليوم لأجد نفسي أخرى غير التي عشتها ..أشعر بحميمية نحو كل الأشياء التي لم تكن تعنيني ..أصابعي صارت أوتار كمان ..وجسدي كله معزوفة للذة والوجع ..أشعر وكأنني روح جديدة بعثت لتوها داخل جسد تشبهه تماما .

- لا حياة لي بدونك ..إما أنت أولا أحد .

- مدينة لك باعتذار عمره ثلاث سنوات مضت .

أمسك عمر يدي مبتسما: لا اعتذار منك ..لا تنسي أنت لا تجيدينه ..أنت مدينة لي باتمام وعدك لأمنحك السعادة سنوات عمرك القادمة بعد أن تنتهي من حالة فرح

- اعتذرت عن هذه الحالة .

- لقد قصصت عليك حكايتي معك لتعيدي التفكير في قرارك .

- أكنت تعرف ؟!

- نعم .

- أنا فشلت .

- لا أنت استسلمتِ ..يبدو أن هذه الحالة لا تستحق منك المزيد من المحاولة.

- أبدا ..بالنسبة لي هي تحدي لقدرتي ولكن ..

- لا مكان للكن إن أردنا تحقيق شئ ما .

- كنت أبني كل استناجاتي على إيجاد علياء الحقيقية ..هي وحدها التي ستؤكد صحة افتراضاتي ولكن نورا فشلت في العثور على رقم جبران أو علياء في الدليل إذا لا وجود لها.

- أنت تفكرين تحت ضغط وأفكارك كلها مضطربة ،فكري بهدوء وستصلين لما تبحثين عنه.

- لا فائدة دكتور حسام سيرسل طبيبة أخرى لمتابعة حالتها اليوم .

- أقدارنا تصنعها نياتنا ، وإن كانت نيتك خالصة في علاج فرح لن يتم شفاؤها إلا عن طريقك..ثقي فيما أقول .

وصلت البيت وأنا متفائلة ومطمئنة ،لأول مرة في حياتي أنصت لأحد أسمعه وأصدقه،أنا لا أصدق إلا ما يقوله عقلي ولا أثق بأحد أبدا ..لم أجرب هذا الشعور من قبل أبدا ..أن يطبطب أحدهم على وجعك ويشعرك أنك لست وحدك .

قضيت اليوم بين النوم والقراءة وسماع الموسيقى صوت جرس الباب ،من يا ترى جاء دون موعد؟! ..لا يمكن أن يكون عمر إنه لن يكررها أبدا خاصة بعد ما صار بيننا من مشاعر، أعلم كم يخشى أن يضايقني أو يخدش حيائي ..اتجهت إلى الباب أحمل علامات الاستفهام والتعجب لأجدها نورا .

:ماذا حدث ؟!

- لا تجيدين الترحيب بضيوفك يا شهد .

- تفضلي ولكني مندهشة فقط .

جلسنا وأحضرت لها مشروبا .

ـ كنت أشعر بالذنب تجاهك لأنني أخفقت في إيجاد ما كلفتني به لكني فكرت، لماذا نركز على جبران وعلياء؟ خاصة وفي هذه الفترة لم يكن أهل القرى يهتمون كثيرا بإدخال التليفون إلى بيوتهم .

ـ حقيقة حتى إن فرح لم تذكر أبدا أن أحدا من أبناءها هاتفها بالتليفون .

ـ فكرت في أن ثمة أمل لو بحثنا عن رقم هاتف كريم بالتأكيد سنصل لشئ إن كان افتراضك بوجود علياء صحيحا .

ـ هل وصلتي لشئ ؟

ـ بحثت في دليل الهواتف المنزلية ولم أصل لشئ .

ـ لماذا أشعرتيني بالأمل إذا ؟

ـ أنت تعيشين في شقة بالإيجار وتليفون هاتفك باسم أصحاب المنزل لكن لديك هاتف جوال.

ـ نعم .

ـ لذا بحثت في تطبيق ((true callerالشهير للهواتف المحمولة .

ـ أعرفه هذا تطبيقا عالميا عن طريقه يمكنك كتابة اسم من تريدين للحصول على الرقم المطلوب .

ـ رصدت عشرة أسماء من مصر وجئتك حتى نتصل بهم الآن .

كنا مضطربتين وبدأنا الاتصال .

وبعد عدد من محاولات فاشلة اتصلنا برقم كان مشغول دوما،كان آخر أمل لنا .

ـ الوقت تأخر سأعود للمنزل وأي واحدة منا تصل لشئ تبلغ الأخرى .

ـ اتفقنا .

دخلت سريري وكررت المحاولة دون جدوى.

في مساء اليوم التالي .

هاتفي يضيئ ظلام الغرفة باتصال من رقم مجهول ..دقات قلبي متسارعة أمسك الجوال بارتعاشة..أشعر أنه كريم .

-مرحبا..من ؟

-أنا الطبيبة المعاجة لحالة فرح .

أيمكنني مساعدتك بأي شئ؟ ،لقد تركت كل التقارير الخاصة بها في مكتب دكتور حسام .

- فرح لا تريد غيرك ، رفضتني وأصابتها حالة هيستيرية ،حطمت زجاج حجرتها وفشلت كل محاولاتي في احتوائها ، تشير لصورة رسمتها من خيالها وتقول الفاجرة .. الراجل وابنه، إنها مصابة بالهوس .

- ربما أخفقت في تشخيصك ،فرح طفلة وديعة والهوس يصيب الأشخاص الذين يتعلقون بشخص أو فكرة واحدة ويتمسكون بالحصول عليها حتى لو كان ذلك مستحيل ..ويبذلون في سبيل ذلك كل شئ حتى حياتهم، ولكن فرح تمر بحالة مختلفة تماما .

- المهم أنني أبلغت دكتور حسام انسحابي، وطلب مني مهاتفتك .

- أشكرك

دكتور حسام شعر بخطأه حتى قبل انسحابي وتورطه في زيادة حالة فرح سوءاً ولكنه لا يمكن أن يواجهني بذلك .

الفصل الثالث

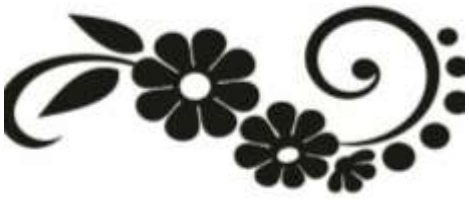

التقتنا نسرين بوجه باسم :ابنتي تعلقت بكما وحتى إن لم تعالجانها أبقيا معها ..شرح لي دكتور حسام كلما حدث بينك وبينه شهد ..لكن ابنتي لا تبتسم إلا في وجودكما وأنا لا أطمع في أكثر من ذلك .

استقبلتنا فرح بوجه عابس .

-لماذا تركتاني وحدي ؟

ضممتها أنا ونورا : لن نفعل هذا مرة أخرى .

وضعت فرح كفها في يدي وأخذت كف نورا وضعته فوق كفها وقالت :عهد من الله .

- نعم .

كانت فرح تضع أمامها إحدى رسوماتها ،لفتاة حامل تبتسم بابتذال خلفها رجل كبير مسن ومراهق كلاهما يجذبها من ذراعها تجاهه .

- ما أجمل هذه الرسمة

- إنها قبيحة أمسكت القلم وشخبطت على اللوحة .

- من الفتاة يا فرح ؟

-زينب .

-ومن الرجل .

أمسكت فرح القلم مرة أخرى وموهت الصورة أكثر فلم تعد أي من ملامح الأشخاص واضحة لنا .

- من زينب ؟

نظرت إلينا فرح وفي عيونها دموع ثم ذهبت إلى أرجوحتها .

وبدأت الحكي:

أبي درويش كان غاضبا عندما أخبره جمال بما تنويه الحكومة من اقتطاع جزء كان من أرضنا التي كانت آخر ما تبقى من ميراث أبيه، لاستكمال طريق دمياط الدولي الجديد .

- لا أعرف يا جدي ما سر غضبك ؟..كنت تفرح لكل مشروع جديد تقيمه الدولة ..وتحدثنا عن فائدته لتجارتنا وإيصال منتجاتنا لكل المحافظات بسهولة وكيف هي دمياط أغنى

محافظات مصر بمواردها وموقعها المتميز الذي يجمع بين البحر المتوسط كمنفذ بحري وفرع دمياط لدلتا النيل ..ربما حين هدد هذا التطوير مصالحك غيرت وجهة نظرك .

- لن أحاسبك على وقاحتك في الحديث عن جدك بهذا الشكل .

- كنت أمزح يا جدي ..سامحني .

- هذا ليس مزاحا ..أنا يا أبني أبدا لا أفكر بهذه الطريقة التي تفكرون بها أنتم جيل هذه الأيام السوداء ..لكن الحكومة ليست عادلة ولم تعوض أحد ممن اقتطع توسيع الطرق أراضيهم عشر ثمن الأرض الحقيقي .

علياء : ما يقوله جدك هو الحقيقة حتى أن كل الأهالي ممن يمتلكون قطعة أرض مقرر أنها ستدخل ضمن عمليات التوسيع يبيعونها لأي مشتري من خارج البلد وبنصف ثمنها.

خرجت أعد لأبي كوبا من اليانسون حتى لا يرتفع ضغطه بعد حواره مع جمال .

مريم وسليم كانا يلعبان خلف الدار وكلما جاعا يأخذان من كيس المخبوزات الذي أعددته لهما وعلقته على المشجب في نافذة الدار ،شاهدت الكيس وقد نفذ ،ناديت سليم .

- أصعد إلى هنا .

- نعم يا أمي .

- هل أكلت ومريم كل ما كان في الكيس .

- لا أعطيته لرجل يبحث عن الطعام في حاوية المهملات خلف الدار .

- كيف يفعل ذلك هنا ؟

تعالى يا سليم خذ هذا الطعام وإن وجدته أعطيه له وقل له أن أمي ستعد لك كل يوم طعام مثله، فقط دق على باب الدار .

كان جمال خارجا من باب الدار ورأيته من النافذة فناديته .

- من فضلك خذ تلك الجراكن وأملأها وضعها في التكية ،أنا لا أستطيع الملأ اليوم فظهري يؤلمني .

- يا أمي إصرار جدي على هذه التكية حمل زائد عليك .

- لا إنها سر البركة في الدار .

- لا أفهم كيف تجعلي من المساحة خلف الدار مكانا مخصصا لكل عابري السبيل والعاطلين لتناول الطعام وكل يوم تخبزين وتعدين الطعام لهم؟ !

أشار جمال إلى رجل كث الذقن يجلس على الكنبة يأكل الأرز باللبن قائلاً :هذا الرجل يجلس هنا منذ أسبوع يأكل ولا يشبع .

- يا بني لا تنظر إليه وإلا أصبت بالفقر .

ذهبت لأجلس مع أبي قي حجرته .

عاد جمال بعدما ملأ الماء متأففا .

- ما بك ؟

- هؤلاء اللذين تصرون على وجودهم في الدار سرقوا خاتم زوجتي .

- عمن تتحدث ؟

- أهل التكية .

- ليست المرة الأولى التي يحدث فيها هذا ..لماذا كل هذا الغضب؟ ، من يريد المال فليأخذه،أين سيذهب به كله؟، فاني لا يبقى إلا العمل الصالح والتكية صدقة تذكينا عند الله يا جمال .

- يا جدي هي أصبحت ملجئ للعاطلين واللصوص الزمن تغير ولم تعد النفوس كما كانت هذا المكان يطمع فينا الناس .

-يا بني لقد كان أبي له زرع خلف الدار ويجيئه اللصوص ليلا ليأكلوا منه كان عندما يشاهد أحدهم ..يقف بعيدا حتى ينتهي ..عندما كنت أسأله كان يقول إنهم جائعون فلا تفزعوهم ..لا ترد جائع .

كان جمال مستنكرا كل ما نقول وأبي لم يكن ليقتنع بغير ما تربى عليه .

صوت طرقات عالية بالباب .

- من يا جمال ؟

- نجلاء يا أمي .

نظرت لها بدهشة منذ تزوجت لم أرها سوى في عزاء صباح ولم تدخل دارنا منذ منذ أعطت كريم صندوق الهدايا .

-هتفضلي يا ابنتي

- خالتي أنا أعرف كم كنت تحبين أمي .

- رحمها الله كانت بمثابة أختي .

- أستحلفك برحمتها ساعديني ..أخي وأبي يقفون ضد طلاقي وأنا فعلت المستحيل ولم أستطع إقناعهم ..ولو استمريت مع هذا الرجل سأموت .

كانت تبكي بوجع ،أخذتها من يدها إلى حجرتي، ربما ستقول ما لا يجب أن يسمعه غيرنا .

- يا ابنتي لا أحد يسعى في خراب البيوت والطلاق ليس بالأمر السهل .

- لا شئ يربطني به.. أنا أكرهه.

قطعت كلماتها كالسكين صدري..فأنا حالتها .

- هل يضربك ؟

- ألعن ..إنه يأتي بالنساء ليعاشرهن في بيتي وعلى فراشي وإن تكلمت نعتني بأبشع الصفات ..كثيراً ما يثمل ويفقد السيطرة على نفسه ..وعندما يعود لوعيه ..يعلل ما فعل بأن عدم إنجابي هو السبب في كل ما يفعل ..أموت في اليوم ألف مرة .

تعالي معي.. ذهبت بها لأبي في حجرته وقصصت له كل ما سمعته منها وذهبنا لوالدها .

- تفضلوا زارنا النبي .

- يزيد فضلك ،بنتكم تريد الطلاق ولا تستطيع تحمل المزيد ونخشى عليها من المرض إن تعنتم معها، وجئتك أستسمحك أن تلبي طلبها.. نجلاء في مقام أحفادي ولا أحب أن أراها باكية .

- الرجل لا يعيبه سوى جيبه وهو يوفر لها كل ما تحتاج .

- أنا لا أريد منه شئ سأتنازل عن كل حقوقي ويتركني .

-إن كنت أنت لا تريدين فنحن نريد .

- لكي يتوسط لك لتدخل كلية الشرطة ..تؤذيني أنا !

- أنت غبية لا تعرفين مصلحتك ..إن طلاقك سيؤذيك في عملك ويؤذي أخونا الكبير وأنت تعلمين نفوذه الأمر لن يقف عندي .

- وكيف يفعل كل ذلك البلد ليست بلده يفعل في الناس ما يشاء ؟

- للأسف يا حج درويش هي كذلك .

- لو كانت تزوجت بأفقر شاب في القرية لكان صانها بدلا من هذا الوحش.

- إنه كالإخطابوط يتوق رقبتي وبأذرعه يطوق كل عائلتي .

- لكل شخص الأكبر منه ولا مشكلة بلا حل ..سيساويها المولى عز وجل.

خرجنا ننظر لبعضنا البعض .

- ما حدث اليوم لا يجب أن يعرف عنه كريم شيئا .

- بالطبع يا أبي وهل أنا غبية ..أعرف كم كان يحب نجلاء وكم تألم لفراقها

- وأيضا يجب أن تفهمي أنه تزوج عن غير حب وربما طلاق نجلاء يجعله يفكر فيها مرة أخرى .

- لكن كريم كرامته فوق كل شئ ..ونجلاء تركته .

- وقتها لن يفكر بعقله وخاصة نجلاء لم تنجب ومازالت جميلة وصغيرة انتبهي لما حذرتك منه .

- أعدك .

ضحك أبي : ألم أقل لكم أن ملوك هذا الزمن سترون منهم ما لم تروه في أي زمن آخر .

- يا أبي كل أصحاب المال يستعبدون الناس .

- لا ..أبناء الأصول لا يفعلون ذلك ..المال بلا أصل لا يساوي شئ ..زوج نجلاء كان يجمع نشارة الخشب من محلات النجارة ثم أصبح صاحب أكبر ورشة في دمياط ،وعندما فتحت الميناء الجديدة عمل في الشحن والتفريغ حتى صار حوتا كبيرا ..هؤلاء هم من حذرت منهم.

- ربنا يكملها بالستر هذا زمان فتن .

دخلنا الدار صوت ضجيج .

سليم ومريم يتشاجران .

- أمي أريد أن أشاهد فيلم إسماعيل ياسين وسليم يضايقني.

- سليم لماذا تضايقها ..أتابع فيلم الكارتون على القناة الثانية .

درويش يشير للتلفاز: هذا ما نأخذه من هذا الجهاز..الصداع .

جمال صارخا : العراق دخلت الكويت .

نهض أبي من مجلسه : كنت أظنك تقول أنها دخلت إسرائيل ..أغبياء .

ساءت حالة أبي الصحية هذه الأيام وكانت حسرته كبيرة .

كريم حصل على شهادة الدكتوراة وجمال وضع كل همه في جمع المال وشراء العقارات ووسع دائرة علاقاته وكان دائم القول ..من لم يحقق الثراء هذه الأيام سيصبح كمن يركب الفلوكة في زمن السفن .

صمتت فرح وأخذت الورقة والقلم وشرعت في رسم لوحة للشمس تشرق فوق ميناء دمياط.

خرجت ونورا ودعوتها لفنجان قهوة في أحد الكافيهات .

- هل فهمت شئاً من رسمة فرح الأخيرة ؟

- هي لم تحك أي شئ عن زينب كما توقعنا ،تجاهلت الأمر .

- أمرها محير تلك الطفلة ،تبحر بنا في اتجاها آنى شاءت .

-الأغرب ما قالته الطبيبة المعالجة عن تلك الرسمة .

- ماذا قالت ؟

- ليس مهما الآن،أنا لا أجد تفسيراً لكل ما تقول فرح ورأسي أصبح كبالون ينفخ كل يوم إما أن يطير أو ينفجر بثقب صغير .

نورا مبتسمة: بإذن الله يطير ونفك الطلاسم كلها ، تعرفين يا شهد أنا أتمنى أن نجد علياء وأسرتها عائلة حقيقية وليست من نسج خيال فرح ، لا أتخيل أن كل المشاعرالتي عشتها من خلال حكاياتها غير حقيقية .

- معك حق ..لقد تعلمت من حكايتها الكثير ..لقد غيرتني فرح من داخلي ..نكأت جراحا كنت أظنها مغلقة ..جعلتني أكتشف ذاتي من جديد ، حتى وإن كان ما عشناه معها وهم ،سأظل أسيرة لهذا الوهم طول حياتي .

- أين القهوة يا بخيلة ؟

ناديت النادل فعندما أذكر اسم فرح أنسى كل شئ .

جلسنا نرتشفها لنبتلع معها أفكارنا المضطربة ، صوت الجوال ..نظرنا لبعضنا البعض يظهر الرقم باسم كريم جبران ، فجأة شعرت أنني نسيت كل ما يجب أن أقول كل الكلمات جفت في حلقي .

- مرحبا .

صوت طفلة صغيرة : مرحبا .

- من معي ؟

- أنا ندى ..أحب عرائس الباربي وألعاب تلبيس البنات وأنت ؟

باضطراب : نادي والدك .

- بابا خرج وأنا هنا ألعب، تعالي ألعبي معي .

- ما اسم أبوك ؟

انقطع الخط ،حاولت الاتصال، ولكن لا أحد يرد .

- هو من نريده ،ندى من أحفاد علياء .

يا إلهي ما هذا القدر كلما اقتربت من الحقيقة تشاغبني الصدف .

عدت إلى المنزل، هاتفت عمر لأطمأن عليه ،كان في رحلة عمل ،سألني عما وصلت إليه؟، أجبته :أن الحقيقة تراوغني كشهاب السماء .

حاولت الاتصال برقم كريم ..ربما .

باغتني الصوت : مرحبا مساء الخير ، مين حضرتك ؟

كل الحجرة أصبحت أشكال دائرية متقاطعة ، جف حلقي بشدة بلعت ريقي ، ،دقات قلبي أعلى من صوت اصطدام حروفي بحنجرتي ،استجمعت ذاتي .

- أنا الدكتورة شهد ..اتصل لأسأل عن شخص يدعى كريم جبران .

- نعم أنا كريم ..خير .

- سيادتك ما اسم والدتك ؟

كريم باستخفاف : هل بيننا سابق معرفة لتسألينني سؤال شخصي كهذا ؟

- لا لكن الحقيقة هناك أمر ما مهم ولا أعرف إن كنت أنت المعني به أم لا ولكن من اسم والدتك سأعرف .

كريم ببرود: علياء درويش .

أغلقت الجوال فجأة..لا أعرف كيف؟، ولكن الصدمة أربكتني ..كلماته هوت على رأسي كصخرة .

اتصلت بنورا : علياء درويش عايشة .

- فرح لا تتخيل إنها حقيقة ..ماذا سنفعل الآن .

-غدا سأقابلك في العاشرة صباحا أمام مكتب دكتور حسام ،يجب أن نطلعه على ما توصلنا إليه ما اكتشفناه اليوم سيغير مسار تفكيره تماما .

- لا أحب هذا الرجل يا شهد ،أستاذ الماجستير الذي يتابعني أرحم منه ،حاجباه المعقودان يمثلان حاجزا نفسيا بيني وبينه .

- نورا أعلم أني ورطتك معي في هذا الموضوع من البداية ولكن هذه المرة أريدك معي .

- لا يمكنني أن أرفض لك طلبا ما بالك لو كان رجاءا يا مغرورة أنت .

ضحكت .

في الصباح دخلنا مكتب دكتور حسام أبلغتنا السكرتيرة بسفره أمريكا ،سألناها عن رقمه هناك؟، قالت: أنه يغير الشريحة حتى لا يزعجه أحد .

- نعم !

- سافر ..وغرقنا .

- ماذا سنفعل الآن .

- سنكمل الطريق ..فهذه الحالة أصبحت لنا .

جلسنا نفكر ماذا سنفعل .

- علياء درويش الآن موجودة ..ماذا يعني هذا ؟

ضحكت :لا أعرف ..ما معنى وجودها؟! ..ولا أعرف كيف سأتصرف !

نورا تنظر لي بدهشة

وضعت يدي على خدي ،فأنا لا أعرف ماذا يعني أن علياء موجودة ، كل ما أعرفه أنني كنت متأكدة أن فرح لا تهلوس ووجود علياء يثبت صحة فرضيتي لكن دكتور حسام وحده هو الذي كان من المفترض أن يجيب هذا السؤال .

نظرت لنورا معناها تناسخ أرواح ! لكن كيف؟! مستحيل ،روح واحدة ..جسد واحد مثلما قال دكتور حسام .

- ولو افترضنا ما تقرلين ،كيف أخذت فرح روح علياء ؟! وأين روح فرح الآن ؟!

- ولو أخذتها بالفعل ،هل هذا يعني أن علياء تعيش بلا روح ،إذا كيف تعيش ؟!

نورا : فلنفكر بهدوء ..الآن تيقنا من وجود علياء ..فالخطوة التالية أن نعرف عن علياء الحقيقية بعض المعلومات ونقارنها برواية فرح ..على أساسها نقرر الخطوة التالية .

- تفكيرك منطقي ، سأتصل بكريم الآن وأطلب منه مقابلة والدته .

- شهد تريثي هناك خطوة يجب أن تتأكدي منها قبل ذلك .

- ماذا ؟

- فرح كانت متعلقة بجدتها جدا ،من الممكن أن تكون جدتها وعلياء كانتا صديقتين وروت لفرح عنها ،وطفلة ذكية كفرح احتفظت في ذاكرتها بكل ما كان.

- والهيكل العظمي والعجين والخبز بناهيا ؟..أيعقل أن يكون الأمر بعد كل هذا العذاب بهذه البساطة ؟!

- في رأيي قبل أن تتصلي بكريم وتورطي نفسك علينا أن نعرف أسم جدة فرح الحقيقية .

اتصلنا بوالدة فرح بلا فائدة الرقم مغلق .

- لابد أن أعود للجامعة الآن .

- سأكرر المحاولة وإن استمر الحال على ما هو عليه سأتصل بك ونذهب إلى نسرين بنفسنا لا فائدة لم ترد نسرين أبدا، ذهبت ونورا للبيت سألنا الخادمة أن نقابل نسرين فأجابتنا بأنها خرجت منذ الصباح ولم تترك خبر عن موعد عودتها هممت للخروج من البيت ..نظرت إلى نورا متسائلة: ألن ندخل ؟

-وما الفائدة من جئنا إليها خرجت ؟

- فلنسأل فرح .

- فرح لا تعرف أي شئ عن نفسها .

- ألن نجلس معها لتحكي لنا ؟

- الجلسات السريرية التي كنا نتبعها مع فرح لم يعد منها فائدة ..كل ما نريد معرفته قد حصلنا عليه ، هي الآن محتاجة لعلاج حقيقي ..وهذا لن يأتي إلا عندما تتكشف لنا كل خيوط المشهد.

فاجأتنا فرح بحضورها الطفولي البرئ ودون أن تنطق بأي كلمة وضعت كفها بين كفينا تذكرنا بالوعد وسحبتنا لغرفتها .

وبتلقائية بدأت الحكي .

وبخضوع تام وشغف جلسنا مستمعتان .

جلست أصلي الظهر بينما كان سعيد واقفا عن شمالي.

- السلام عليكم ورحمة الله ..سعيد مابك ؟

- سيدي عبد الرازق .

- تريد زيارته .

- بهدوه .

علياء : ومن يجرؤ؟! ..أنت لا تعرف ماذا تقول .

ارتديت عباءتي والطرحة وأخذت سعيد وتوجهت للمشايخ الجالسين في التكية خلف الدار.

علياء : يا شيخنا سعيد قال لي اليوم أن ضريح سيدي عبد الرازق .

لم أستطع استكمال ما قاله فالكلمة لا تريد أن تخرج من فمي .

- الشيخ سعيد أنا أعرفه ورأيت له كرامات .. كلامه صحيح.. المحافظ الجديد جمع اليوم عمال البناء التابعين للمحافظة وذهبوا لهدمه ولكن كرامات مولانا ظهرت لهم وسمعت أن هناك من توقفت يداه عن الحركة ومنهم من تيبست قدماه في الأرض بلا حراك فغادروا خائبون .

-بركاتك يا سيدنا الشيخ .

كنت سعيدة بكلام الشيخ عن سعيد وكراماته .

شيخ آخر من المشايخ قال :سمعت أن سيدي عبد الرازق زار هذا المحافظ الجاهل بكرامات الأولياء في منامه وهدده بما سيحل عليه من خراب إن اقترب من ضريحه .

- بالفعل لقد أصيبت ابنته في حادث سيارة.

- ومن يدري ماذا كان سيحل عليه من خراب ؟!

دخلت الدار وجدت كريم يتحدث مع مريم .

- لا أعرف ما هذا الجهل ميدان مهم كميدان سوق الحسبة يتعطل توسيعه بسبب خرافات .

- أعتقد أن من روج هذه الشائعات هو المستفيد الأكبر من بقاء الميدان كما هو .

- تقصدين ، أصحاب المحلات الموجودة على جانبي الميدان ؟

- نعم ، فمعنى نقل الضريح لمكان آخر وهدمه هنا أن يفقد السوق زبائن دائمين ولهم طلبات محددة وهي نذور مولانا .

- ما هذا الكلام الفارغ أهذا ما تعلمتوه ؟!..الاستخفاف بالأولياء .

- لا يا أمي نحن نحترمهم ونحترم تقديرك لهم ولكن ، لا يمكن للأموات أن يتحكموا في حياة الأحياء .

- يا أمي هذا السيناريو ذاته ما حدث في الجهة المقابلة لديوان عام المحافظة عندما أرادوا هدم ضريح علي الصياد من أجل استكمال طريق كورنيش النيل (الهويس).

- لا يعقل بعدما وصل الإنسان للقمر أن تتعطل قدرته عن تطوير المكان الذي يحيى فيه على الأرض لمجرد خرافات .

لم أرد أن أسمع المزيد تركتهما يتحدثان كمقدمين برامج التلفاز ودخلت غرفتي .

جاءني كريم .

- إن كنت تريد أن تستكمل حديثك عن .

- لا أريد أن أتحدث عن أي شئ يزعجك .لكن أطلب رضاك في أمر ما .

شعرت بالقلق هل علم كريم برفع نجلاء قضية خلع على زوجها بعد موت أبيها وعودتها لبيت أمها .

- أستأجرت بيت في الكفر وسأتزوج فيه نجلاء .

- نعم!

- لقد ربحت قضيتها ،وأعرف أنك تعلمين وكلكم أصررتم على إخفاء حقيقة الأمر عني .

- كلنا أخفينا عنك أمر رجوعها لكنني لم أعرف أنها ربحت قضيتها إلا منك ويبدو أنك ساعدتها في ذلك .

- نعم ..أتصلت بأستاذ كبير في كلية الحقوق من دفعتي ..لا يمكن أن أرى نجلاء تتألم وأتركها.

- لكنها .

- كانت صغيرة بعد وأخطأت التقدير .

كلام أبي صحيحا ،الحقيقة دوما كلمات أبي هي الأقرب للحقيقة التي لا أراها ، تذكرت يوم دخلت بيت كريم ووجدت صورة نجلاء موضوعه على مكتبة ، وعندما نظرت له باستنكار قال : زوجتي تعرف ..لم أخدعها ،تعرف أن قلبي مازال معلقا بأخرى وهي راضية .

- وفيما تطلب رضاي ،أنت خططت لكل شئ حتى البيت أستأجرته .

كريم بعيون متوسلة : أمي رجاءا .

طوقته بزراعي : مبروك يا كريم .

- بالمناسبة البيت الذي أستأجرته في الضبايعة بعيد عن الترعة والمصرف .

كريم مبتسما : تتابعين خطواتي إذا .

- ستحتاج لحفر خزان سقف المنزل لتجميع الصرف الصحي ، لأن مالك الأرض كان يحفر خلف الدار وسبب هذا ارتفاعا في منسوب الأرض حتى كادت تصل للشباك في الدور الأرضي.

- هل مقبول هذا يا أمي أن نعيش حتى الآن بلا صرف صحي ؟!

- هكذا عشت وهكذا أموت راضية بكل ما كتبه الله لي .

دخل علينا جمال .

ولكن لم يكتب الله لك يا أمي هؤلاء الجالسون في التكية يتناوبون شرب (البانجو والحشيش) بعد خروجهم منها ثم يعودون ليتسولون الطعام .

استشعرت بتوتر كريم حيال دخول جمال المفاجئ .

- متى وصلت ؟

- منذ خمس دقائق لأرى ما رأيت .

- سبق تحدثنا في الأمر ورفضته .

- وقتها كان الناس أطيب من الآن وأقصى ما كانوا يفعلون هو سرقتنا لكن الآن الأمر تطور للأسوء .

كريم : أتفق مع جمال يا أمي .

- لكن بينهم المشايخ يا بني وعابري السبيل .

- كل إنسان يتكفل بنفسه .

سمعنا صوت نداء أبي خارجا من غرفته التي لم يعد باستطاعته أن يبرحها فقد أصبح طاعنا في العمر ويرقد في سريره دوما .

- لماذا لم تدخلا لتسلما علي منذ وصلتما الدار؟ ،هل أصبح لا فائدة من وجودي ؟،هو وعدمه متساويان .

كريم قبل يد أبي وجمال أيضا .

- أنت الخير والبركة ..صدقني سألت مريم منذ لحظة وصولي وقالت أنك نائم فخفت أن أزعجك .

قرص أبي كريم من أذنه كما كان يفعل وهو يعاتبه عندما كان صغيرا :لا عليك إزعجني أنا دوما نائم فهل ستأخذ النوم مني إذا أيقظتني ؟ ..ليتك تأخذه .

نظر أبي لكريم وجمال قائلا : المادة طغت على كل شئ ونزعت من قلوبكما الرحمة ..الزمن القادم هو الأسوء ..الزكاة لا تصل الفقراء ولا تدفع كاملة ..سيتحمل أبنائكم ما فعلتموه .

نظر جمال لجدي : يا حج أنا .

نظر أبي لجمال بشفقة : راجع حساباتك يا جمال .

أراد كريم تخفيف حدة النقاش .

- ما رأيك يا جدي في دور دمينو من الأدوار التي كنت تغلبني فيها دوما .

-أفتح هذا الدرج وضع الدومينو على السرير .

- مازلت تحتفظ به حتى الآن يا جدي ؟!

درويش : الأشياء الثمينة تبقى في محلها لا تتغير مهما مر عليها من الوقت .

مريم دخلت الحجرة لاهثة : أمريكا دخلت العراق .

نظر لها جمال بشغف :هذا قرار صائب..العراق تهدد كل الدول المجاورة فلنقضي على هذا القلق

- لا بالطبع أمريكا نواياها دوما سيئة قالها كريم باستياء.

- ذكرتموني بأبي حينما جاءه شيخ الصيادين وقت الحملة الفرنسية على مصر، وقالله :إن الفرنسيين يقولون أنهم جاءوا مصر ليقضوا على المماليك وأخذوا يعددوا في التجاوزات التي فعلها المماليك معنا في دمياط فرد أبي : نحن صيادون مهرة لا نبلع طُعم أبداً..فهل من المعقول أن يدافع غريب عن أرضنا !

لو عاد بيا الزمن يا جمال سأعيد تعليمك الصيد من جديد .

هم جمال بالوقوف فاصطدمت يده بقطعة دومينو وقعت على أثرها قطع الدمينو التي رصها كريم متلاحقة .

نظر إليها أبي قائلاً : هكذا ستسقط باقي الدول .

انقطع أبي بعدها أياما عن الطعام والشراب حتى مات ، أغلقنا التكية فلم أعد أملك القدرة على الخدمة وفاة أبي جعلتني ثقيلة كجذع نخلة عجوز يابس لا يثمر ولا يجتث من الأرض.

مرت السنين بطيئة أنجب كريم لي عدد من الأحفاد وجمال أيضا لكن أكثر ما حققه جمال هو ازدياد ثروته بشكل مبالغ فيه ، تزوجت ريم وسليم ولكن ريم لم تنجب .

اليوم سيذهب كبار البلد ليحضروا جلسة الصلح بين الهواشم والضبايعة ،أتصلت بكريم لأخبره وجاء .

- لا أعرف يا أمي ما سر اهتمامك بهذه الجلسة وإلزامي بالحضورفي هذه الظروف الصعبة ؟أتعرفين كم لجنة شعبية أوقفتني حتى أصل إليك ؟!

-يا ابني وجودك مهم حتى لا يشعر الناس أن زوجتك وحدها هنا وأنت في دمياط ..أن تقف مع الرجال ليستشعرون بوجودك معها ،ثم أنت شرف لعائلتنا.

فتح كريم التلفاز : لقد تنحى مبارك عن السلطة .

بكيت بمرارة :ضيعتمونا بطيشكم من سيحمينا الآن ..لقد غاب الأسد عن عرينه ..وتركه للضباع تنهش فيه .

ـ أنا لا أفهم سر هذا الحزن ألا ترين الفساد والثراء الفاحش والفقر الشديد؟! ،الناس تأكل من صناديق القمامة .

ـ الآن تتحدث عمن يأكلون من صناديق القمامة ..ويوم وقفت لي أنت وجمال لأغلق التكية، أهو مسئول وحده عن كل ما حدث ؟!، ألم يبني دمياط الجديدة ؟ والطريق الذي جعل أخوك من ملوك هذه الأيام ؟ألم يبني الميناء ؟ألم يمنع عنا تدخل أذى البلدان من حولنا ؟لا خير فيكم أبدا ،لو كان جدك بيننا الآن لقال لك أن الثورة كالحرب التي نصنعها نحن بأيدينا لا تجلب إلا الخراب .

اتصل كريم بجمال :

ـأترى ما يفعله هؤلاء الطائشون بالبلد،كل مصالحنا مهددة بالخراب ؟

ـ لا تكن أناني يا جمال ،فكر ولو لمرة واحدة في مصلحة البلد التي أعطتك من خيرها .

ـ وهل من مصلحة البلد أن تتعطل مصالح الناس العمال في المصانع والمصالح متوقفون عن العمل ،هل هذا هو الصالح ؟!

ـ فترة وسنصبح أفضل .

ـ يا كريم أفهم أنا لا أتحدث إليك الآن كرأسمالي من الذين يقول عنهم جدك أنهم يستعبدون العمال أنا أتحدث إليك كمواطن فقد الشعور بالأمان .

ـ أبني الكبير مع زملائه هناك ..هو أكثر من يخاف على مستقبله ومع ذلك ذهب ليدافع عن رأيه .

ـ لا فائدة من النقاش هؤلاء الصغار يدفعوا بنا للهلاك ولا يفهمون أنهم أداة لتنفيذ مخطط أكبر ،يا كريم تذكر كلمات جدك هذه قطع الدومينو التي تتساقط ألا تذكر ولكن الخطة الجديدة أن تتساقط بأيدينا نحن .

إنها من المرات القلائل التي أتفق فيها مع جمال ,أعرف أنه دوما يحكم مصلحته في كل أرائه ولكن هذه المرة كلامه صائب، فالطيبون ككريم هم من يحلمون بدنيا بلا ظلم، لكني أعرف أن الظلم خلق مع البشر وسيدوم حتى تختفي الأرض

انقسم شباب البلد بين شباب يخرجون للثورة وآخرون يجلسون أمام الطرق الرئيسية للحماية وأمام المنازل أو حتى داخلها للنوم،وشباب خرجوا للسرقة استغلال للظروف الكل معطل عن العمل إلا سليم يواصل الليل بالنهار

عاد سليم كعادته ليلا .

- ألست جائع يا ولدي ؟

- أكلت مع زملائي بالصومعة .

- كلنا مدينون لكم ..لماذا تستكثر علي إعداد الطعام لك ؟

قبل يدي :يا أمي لا أريد إرهاقك ، ثم ما نقوم به هو عملنا .

- لقد سمعت من زميلك صدور تعليمات من رئيس الهيئة بإيقاب العمل في الوردية الثالثة .

- نعم أعتبرها وردية حراسة ..ولكننا نريد كسب وقت فلم نوقف العمل ..نفرغ البواخر بجهد مضاعف وفي وقت أقل ،لنؤمن حاجة الناس من الغذاء والدواء .

- هذا أجمل شئ رأيته فيما فعلتموه فينا .

- يا جدتي أنا أعرف رأيك فيما يحدث ولكن .

- يا بني قالوا في المثل (اللي مالوش كبير يشتريلوا كبير)ما تفعلوه بلا زعيم .

-يا جدتي تغير شكل الثورات الآن ، ثورتنا تحقق أهداف غيرمرتبطة بشخص ..أي شخص يحقق أهدافها ستختاره .

- يا سليم ..ثورة بلا زعيم ..فوضى وجحيم .

نظرت إلينا فرح ..أنهيت قصتي أنا علياء درويش .

خرجنا من جلستنا مع فرح محملتان بذكريات مشتركة عما حكت عنه ،فأحداث ثورة يناير مشتركة بين كل محافظات مصر لا فرق بين شمالها وجنوبها كلنا عشنا التجربة سويا ،لكن منا من آمن بها ومنا من انكرها، لكننا جميعا أرغمنا على اقتسام شعور واحد هو الخوف.

جلسنا ننتظر نسرين في الصالون.

-ألم تلحظي شئ يا شهد ؟

- لا حظت الكثير ولكن عن أي شئ تتحدثين ؟

- لقد أنهت فرح قصة علياء قبل أن نعرف شئ عن سعيد الذي اختفى من المشهد فجأة واختفى من الصورة أيضا !

- الذي يشغل بالي أكثر أنها لم تذكر السنتين الأخيرتين بالرغم أنها قالت أنهيت الحكي .

نظرت لي نورا بابتسامة حيرة:ربما كانت تشعر أنها المرة الأخيرة التي ستحكي لنا فانهت الحكاية

- الأمر ليس بهذه البساطة .

جاءتنا نسرين بعد كنا يئسنا حضورها وبعد أن طمأنتها على حالة فرح سألتها : ما اسم جدة فرح .

-نعمة محمد .

اتصلنا بكريم .

-مرحباً أستاذ كريم ..أنا شهد التي هاتفتك أمس .

أعتذر لانقطاع الخط .

-لا عليك ..ماذا تريدين ؟

- لدي أمانة أريد إعطائها لوالدة حضرتك .

- ما هيا ؟

- أمانة من جدتي يبدو أنها تعرف والدتك قبل سفرها ،أكدت أن تصل أمانتها لعلياء .

- ما اسم جدتك ؟

- نعمة محمد .

- لم أسمع هذا الأسم قبل ذلك من أمي .

- هل يمكنني أن أكلم والدتك ؟

- والدتي يا آنسة توفت منذ عام .

- نعم !

- ماذا ؟

- اعتذر ..الله يرحمها ..أستاذ كريم ..أنا أحتاجك في موضوع خطير حياة أو موت شخص ويجب أن أراك لأطلعك على الأمر .

- إن كان الموضوع بهذه الأهمية سأنتظرك غدا .

- العنوان من فضلك .

أعطاني كريم العنوان شكرته وأغلقت الجوال .

نظرت لنورا : سنذهب الآن لأم فرح لنخبرها بما حدث ونستأذنها في سفر فرح معنا إلى دمياط .

- لا يا شهد ..لا أوافقك الرأي .

- لماذا ؟

- هكذا ربما تتعرض البنت لصدمة ثانية ،مثلما حدث يوم السي دي .

- الحق معك ،فربما صادفنا جبران هناك .

- هذا غير أن الدكتور حسام مسافر ولا يجب أن تتصرفي وحدك معها دون استشارته في مواجهه خطيرة كتلك .

- أوافقك الرأي ،سنذهب أنا وأنت وعمر نهئ الجو هناك .

اتصلت بعمر أخبره بما وصلت إليه ،كان متحمساللنتيجة التي وصلت إليها وضعت الصورة التي رسمتها فرح لعائلة علياء في حقيبة يدي وذهبنا معا في اليوم التالي إلى دمياط ،قطعنا مسافة 191 كيلو متراً شعرت فيهم بخفقات قلبي تتوقف بين الفينة والأخرى ،شعور غريب للمرة الأولى يجتاحني عندما نشتاق للوصول لحقيقة ما،تصبح العجلة هي سمتنا،أما عندما يتملكنا الخوف من معرفة الحقيقة نتوارى منها متباطئون ،ماذا عندما يختلط الشعوران معا بنفس القدر ؟!

وصلنا دمياط وسألنا حتى وصلنا الشقة ،خرج منها شخص عرفته أنه كريم الذي شاهدته في صورة فرح..الذقن الخفيفة ونفس الطول، صافح عمر ولم يصافحني أنا ونورا، يبدو أن هذه هي التقاليد هنا فكريم نشأ في مجتمع محافظ .

- مرحبا بكم تفضلوا .

جلسنا وسأل كريم زوجته أن تعد لنا الشاي .

همست نورا في أذني : هل هذه هي زوجته الأولى أم الثانية ؟

كنت مضطربة ،لم أعر سؤالها اهتماما .

- من منكما دكتورة شهد ؟

قلت متحرجة : أنا من اتصلت بك .

-أنتم شرفتونا ..ما هو موضوع الحياة والموت ؟!

دخلت الزوجة بصينية الشاي والبسكويت وخلفها ندى بضفائرها الشقراء وعيونها العسلية ..تشبه فرح إلى حد كبير .

نظر لي كريم بحدة مكررا السؤال فقد كنت أتأمل ندى وغافلت ما قال .

- عذرا ..الموضوع إن بنت صغيرة في عمر بنتك ترى الست والدتك في منامها وترى تفاصيل عاشتها والدتك .

- والدتي !..أين هذه الطفلة ؟!

- لم تحضر معنا .

- فضلنا نتعرف عليكم الأول .

فأنا صديقة والدتها وكنا نظن أن البنت تؤلف كل ما تحكي، ولكن عندما تأكدنا أنه في الحقيقة توجد علياء درويش ..تأكدت أن أحلام الفتاة صحيحة.

نظرت لي نورا بابتسامة ..فهمت أنها راضية عما قلت بينما همست لي : لو قلت له الحقيقة لكان طردنا .

- كيف يمكنني المساعدة ؟

- نريد معرفة بعض التفاصيل عن الوالدة ،أين تسكن ،طباعها ،ظروف حياتها .

نظر لي كريم باستنكار فتدخل عمر :أستاذ كريم نحن نعرف جيداً أن ما تطلبه شهد خصوصيات ،لكن هذه المعلومات ستساعد كثيراً هذه الفتاة .

- أنت لا تعرف ما حالة أهلها الآن ..هم يتصورون أنها مجنونة وأحلامها غير صحيحة .

-ماذا تريدين أن تعرفي؟

- أولا أريد أن أذهب لبيت الوالدة .

كريم أشار إلى الشاي : فور انتهائكم من شربه سنذهب للهواشم .

- كيف ماتت والدتك ؟

- مرضت وماتت في سريرها .

- أين والدك ؟

- مات قبلها بخمسة أعوام .

- كيف ؟

- ضرب بالسلاح .

- هل والدك تزوج من امرأة أخرى غير الست علياء ؟

- للأسف تزوج من فتاة صغيرة وانقهرت أمي وتعذبت كثيرا .

- هل أنت ابنها الوحيد أم لك أخوة .

- جمال سليم ومريم .

قلت مندفعة : ونصار ؟

- هل تعرفين نصار ..هو زوج ريم الذي مات بحادث سيارة .

نظرت لي نورا نظرة انتصار ،كل ما قالته فرح صحيحا .

ذهبنا إلى الهواشم في الطريق إليها مرت سيارة كبيرة رائحتها بشعة فسددنا أنوفنا .

قال كريم بخجل : عذرا .. إنها السيارات التي تقوم بكسح الصرف الصحي من الخزانات عند الامتلاء .

- معقول ..حتى الآن مازال هناك أناس يعيشون في مصر بهذه الطريقة ؟!

نورا متسرعة : البيت الذي استأجرته لنجلاء مازال بلا صرف أيضا ؟

كريم ضاحكا: يبدو أن هذه الطفلة تعرف عني كل شئ .

وصلنا إلى البيت كل شئ كما وصفته فرح .

استقبلتنا نجلاء ..عرفتها من عيونها الزرقاء التي حكت فرح عنها فهي تنحدر من أصول شامية ،كنت أود لو أتيحت الفرصة لي لأسئلها كثير من الأسئلة التي دارت في ذهني طوال رحلة الحكي عن أسرة علياء .

ـ البيت مقفول منذ ثلاث سنوات وكان لابد من أن يفتحه أحد .

ـ تشرفنا بك .

أدخلتنا نجلاء إلى البيت واتبعنا كريم وعمر أول ما رأيت في الصالة كانت السورة المعلقة على الجدار بروازها مشروخ ،أخرجت الصورة من حقيبتي، لأقارن بينهما ، كل العائلة كما رسمتها فرح بنفس الألوان ونفس الشكل تجلس علياء وبجانبها أبناءها الأربع بينما يقف الأحفاد أمامهم .

نظرت إلى نورا مبتسمة .

بينما أمسك كريم الصورة من يدي :من أين لك بهذه الصورة ؟

ـ فرح ياسين .

دمعت عين كريم : أريد أن أراها .

طلبت الدخول لحجرة علياء ،المفاجأة أن حجرتها مطلية باللون الأخضر .

ـ هل كل غرف البيت مدهونة بهذا اللون ؟

ـ عندما مرضت والدتي وأصبحت غير قادرة على الخروج طلبت أن تدهن حجرتها بهذا اللون لأنها كانت محبة للطبيعة والزروع .

اقتربت نورا من مسبحة باللون الوردي كانت موضوعة على المنضدة بجانب السرير : هل هذه لوالدتك ؟

ـ بلا ، كانت تسبح بها حتى ماتت ولم تفارقها أبدا .

ـ هل يمكنني الاحتفاظ بها ؟

ـ لا مانع .

- أعدك سأردها في الزيارة القادمة .

عمر مبتسما : أنا أضمن ذلك .

- هل كانت والدتك تحب والدك ؟

سحب نفسا عميقا : أبدا وخاصة بعدما تزوج عليها .

- بالتأكيد من تزوجها إحدى جاراتكم أو الشغالة ؟

- نعم كيف عرفتي؟!،كانت فتاة صغيرة تأتي أمي لتساعدها في أعمال المنزل بعدما كبرت وأصبح من الصعب أن تقوم بكل شئ وحدها .

- بالتأكيد والدتك .

نظرت لي نورا نظرة تحذير ألا أقول ما أنويه.

- والدتي ..ماذا ؟

لم أعر نظرة نورا اهتماما فجموح المعرفة كان أقوى :والدتك شاهدت خيانة قبل أن يتزوج والدك من تلك الفتاة؟

اقترب كريم مني، نظر لي بحدة وارتفعت نبرة صوته :من قال لك هذا ؟،كيف عرفت ؟!

تدخل عمر قائلا : لا دخل لشهد في أي شئ عرفته ولا أحد هنا يهمه أن يطلع على أسرار والدتك ثق بنا ..الموضوع كله شائك وملتبس .

كريم بحزن : إنها زينبابنة رجل يدعى خليل من ناهيا ليس لهم أصول من المحافظة أو القرية ظهرا في حياتنا فجأة وأصبح خليل صديقا لأبي و أجبر أبي أمي على دخول هذه الفتاة الدار فلم تكن أمي مرتاحة لوجودها بيننا منذ اليوم الأول، ولكن أبي برر إصراره ،بشكوى أمي مرارا من عدم استطاعتها الاستمرار في خدمة كل البيت وحدها ، كان سعيد دائم اللهو معها تعد له الفطير الذي يحبه ،حتى جاء يوم وضربها والدي حتى سالت من رأسها الدماء، وحبس سعيد في الدار وقتله ضربا ،وخرج سعيد من يومها ولم يعد،بعدها بيومين اتصل بنا العمدة لنستلم جثة سعيد الطافية فوق ماء النيل ، بكته أمي طويلا وقالت:قتله جبران ،كان أبي قاسيا ولم تكن أمي تشتكي منه قط واستغل زواجي الثاني وبعدي عن البيت وسفر جمال وحبسها هي الأخرى في حجرتها، كان هناك سر لا أحد يعرفه غيرها هو ما جعله يشرع في

قتلها ،منع عنها الطعام وهددها بالسلاح ،بدأ أبي يعمل في تجارة السلاح منذ ظهر خليل في حياته واكتشفنا هذا متأخرا جداً ،جرائم كثيرة ارتكبت بسلاح غير مرخص كان أبي وخليل شريكين فيها ،وظلت أمي على حالها حتى مات نصار وقالت أيضا:أبوكم قتل نصاروأبكى مريم .فكانت حادثة السيارة مدبرة والهدف كان الثأر من أبي وقتل نصار خطأ ،صرخت أمي طويلا :مش عاوزة سلاح في البيت ..خبوا الأكل ،كانت تقول : سعيد أكل طعاما جعله يفقد اتزانه وهو ما رمى به إلى النيل ، قالت : قتل أخوكم ليدفن معه السر كما دفن في أحشائه طعاما مسموما .

ودعنا كريم ونجلاء باعتذارعبرت عنه أعيننا فلقد نكأنا جرحا مازال نازفا، رأيت هذا في صوت كريم وعيناه المسلطتان إلى أعلى وكأنه يستعرض الصور والمشاهد بعينه فتوخزه ألما ،ركبنا السيارة لنستعد لعودتنا للقاهرة .

ـ كم عانت هذه المرأة .

ـلم أكن أتوقع أن تكون نهايتها بهذه السوء .

ـ الأمر أكبر من امرأة عانت ، هناك جريمة ارتكبت ضد الفطرة الإنسانية .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أتذكرين يا نورا الرسمة التي رسمتها فرح لامرأة حامل ويقف خلفها رجل ومراهق كل واحد يجذبها من ذراعها تجاهه؟

ـ نعم أذكر .

ـ هذا هو الجزء المبتور في رواية كريم .

ـ ما زلت لا أفهم !

اخرجت من حقيبتي رسمة فرح فقبل زيارتي لكريم وضعتهما في حقيبتي .

وضعت علامة (؟) فوق الرجل الكبير وعلامة (!) فوق المراهق.

كتبت فوق بطن المرأة ..هنا تكمن الإجابة .

نورا بدهشة : لقد حملت زينب من سعيد .

ـ وربما جبران .

- يا له من رجل بشع .

- هكذا فسرت رواية كريم سر حكاية فرح المبتورة عن علياء التي لم تحك عن نهاية سعيد ولا عن نذالة جبران .

- عندما يصل الألم لذروته نهرب من الحكي عنه حتى لأنفسنا .

- نحاول أن نمحوه من الذاكرة ونرسم فوقه خطوطا كتلك التي وضعتها فرح فوق رسمتها لتموهها.

وصلنا للبيت .

اتصلت بعيادة دكتور حسام وعلمت أنه سيعود بعد غد .

أمسكت المسبحة وجلست أنظر لها قائلة : لا حول ولا قوة إلا بالله .

في صباح اليوم التالي كان التفكير سيسحق عقلي ودكتور حسام أمامه يوما ليعود ولم يكن بإمكاني التصرف بعد ما وصلت له دونه ،فكرت أن أتصل بعمر لينتشلني من بحر أفكاري وأعلم أنه سيحاول بصدق .

شهد : لم تتصل بي منذ أمس؟

- أصبحت أنتظر أنا اتصالاتك حتى لا أزعجك ،فأنت تعرفين مدى حبي لكِ ولو بيدي لبقيت بجانبك لكن أخاف منك .

-أتخاف مني ؟!

- عندما نحب بصدق،بقدر ما نخاف على من نحب نخاف منه .

- هل يمكنك أن تمر علي بعد الظهر ..سنتناول الغذاء معا وتشرح لي ما لا أعرفه عن قواعد الحب .

أغلقت الهاتف وأنا مندهشة مما قال ، كان شعوراً خفيا يتسلل إلى قلبي باحتياجي إلى شخص يشاركني كل تفاصيل حياتي ،شخص تشاركني أنفاسه في كل أركان الشقة ، يستوعبني حضنه عندما أحتاجه ،يمسح دموعي دون أن يراها ،أشعر ببرودة تتسلل إلى كل جزء في جسدي ، لا أعرف كيف عشت عمرا مكتفية بذاتي ؟!

وقفت أمام المرآة أتمم زينتي ،لا أحتاج اليوم لقناع أخفي خلفه مشاعر وجهي ،فقط كل ما احتاجه لمسات ناعمة تعبر عن الحالة التي أمر بها الآن ،مزجت الوردى بلون الزيتون ووضعته على جفوني ظللت وجنتي بلون ثمار الخوخ ومزجت لون الخوج والورد وذوبته على شفتي .

ارتديت فستانا من الشيفون متدرج الألوان بدءا من الأبيض مرورا بكل درجات الروز .

وضعت على صدري سلسلة فضية يتدلى منها عصفور عيناه تلمع بحجرين من اللازورد وخاتم يحمل نفس العصفور ،رفعت جزء من شعري بدبوس شعر وتركت الباقي مسترسلا يداعب بخصلاته ظهري وصدري .

مشاعرنا تتحكم فينا إلى أبعد حد ،فتشكلنا كيفما شائت ،وحان الوقت كي أستسلم لها .

صوت سيارة عمر .

-مواعيدك دائما منضبطة .

قبل يدي فتركتها بين يديه تصهرها أنفاسه ،ترك يدي ربما خوفا مني كما قال ، لكنني كنت أريده أن يبقيها .

جلسنا نتبادل لغة أتهجى حروفها معه ،فالعيون تبوح كما الألسن .

-أشعر وكأنني أراك للمرة الأولى .

- معك حق فكل شئ أرتديه اليوم لم أرتده مثله من قبل .

- هذه حقيقة فستانك المنسدل من عصرور الأساطير وعصافيرك الرامية للإنطلاق وشعرك المحرض على الغواية كل شئ فيك مولود بدهشة اللحظة الأولى،لكن ما لا تعرفينه أن هذا هو سر تمسكي بحبك رغم كل شئ ، أنت المرأة الوحيدة التي كلما رأيتها أشعر أنني أراها للمرة الأولى .

- أتخاف وأنت معي ؟

- أخاف أن أخسرك ،عندما تتعلق روحك بأحد سيكون بمثابة الحياة لك والموت أيضا،أتفهمين هذا الشعور ،الحب مقرون بالخوف دوما .

أعرف ما يقول عمر تماما ، مررت بنفس التجربة مع أمي ،وخشيت أن يسيطر عليا هذا الشعور فيحيلني لظل لها ، فقررت الابتعاد عنها ، أنا لا أفهم القيود .

- الحب قيد .

- أعرفك أكثر مما تعرفي ذاتك ،لهذا سأعاملك كما تحبين ، لن يفرض عليكِ حبي أي فروض.

- أشعر أنني أنانية معك ، أنا أحبك ،لكن لا أمنحك ما تمنحني .

- لم أطمع يوما في أكثر مما تمنحيني .

- محظوظة أنا بك .

-بالمناسبة هل عاد دكتور حسام من سفره ؟

نظرت له وصمتت ، أريد أن أعرف من أنا ؟، أريد أن أرى شهد التي لا أعرفها في عيونه ، أقرأها بين كلماته ،أحتاج أن يكلمني عني أكثر .يستغرق في تفاصيلي .

في الصباح أتصلت بنورا وذهبنا لدكتور حسام .

قصصت له ما حدث في سفره .

- مجهود رائع جدا ..جيد أنك انتظرتي حتى عدتي فمن خلال ما قلتي أنا متأكد أن رحلة فرح لدمياط ستكون الأولى والأخيرة .

نظرت لنورا وجدتها متحيرة مثلي ولكن يبدو أن الدكتور حسام يعرف ما هي الخطوة القادمة.

- ولكن يا دكتور هناك أمر ما يحيرني في رواية فرح .

- ما الأمر ؟

- جبران وسعيد .

- الألم الذي سببه لها جبران جعلها تحذفه من روايتها ،فالحكي مؤلم جدا ففيه استعادة لذكرياتها كاملة وحادث سعيد أيضا ،يبدو أنها كانت تتألم من هذين المشهدين في آخر حياتها فقررت عندما أحيتها فرح أن تخفيهما عن المشهد .

- ولكنها كانت تحكي عن سعيد .

- نعم حكت عن سعيد الابن الذي كانت تحبه لكنها هربت من لحظة وفاته لأنها كانت الأشد إيلاما بالنسبة لها .

- لكنها كانت ترى جبران في منامها ولحظة وفاة سعيد أيضا .

- في المنام ذاكرتنا غير انتقائية .

- هذا يعني أن فرح كانت تحكي بشكل انتقائي وتختار ما تريد البوح به عن حياة علياء .

- أنت وصلت لنصف الحقيقة ، فرح كانت تحكي ما اختارته علياء لها لتقوله ،فرح لا تملك أي إردة فيما تبوح به أو تستدعيه من ذكريات علياء.

- الحقيقة يا دكتور أنا أدركت الآن كم هي متعبة مهنتكم ، فأشعر أننا سنعالج فرح وأجن أنا.

ضحك دكتور حسام قائلا : هيا بنا قبل أن تجن ابنتنا الجميلة .

استقبلتنا نسرين بابتسامة لم أرها من قبل يبدو أن السر في وجود دكتور حسام معنا .

- علياء درويش ..حقيقة وليست هلاوس .

نسرين لطمت وجنتيها : لا ..قل أنك تمزح هذا جنون ،أنت وعدتني أن تعالجها من كل ما تقول ،تأتي الآن وتقول أنها .....لا لا .

نظرت نسرين لي أنا ونورا فهززنا رأسينا وأعطيتها مسبحة علياء .

شهد : للأسف ..ما قاله دكتور حسام هو الحقيقة وهذه المسبحة لعلياء .

تناولت نسرين المسبحة ونظرت لحباتها ودموعها تنهمر :

أخبروني من هي ابنتي ؟ هل هي فرح التي كانت في بطني ؟أشعر بها توخز صدري في كل اتصال بيني وبينها بالرضاعة ،هيا التي كانت تركض هنا وتناديني ماما ، هي من كانت تحب الشيكولاتة وأمنعها عنها خوفاً على ضروسها من التسوس، أنتم لا تعرفون فرح اليوم خلعت سنة من فمها وقالت أنها لن تعود ،أنا من غنيت لها (يا شمس يا شموسة هاتي سنة العروسة) ، أنا أريد فرح أرجوكم .

احتضنها دكتور حسام وبكت وأبكتنا معها ، لا أعرف ما هو شعور أم تشعر أنها لا تعرف ابنتها ؟!، ولكن بكاءها أبكاني .

- نسرين أهدئي ، لا يمكنني شرح الحالة لكِ الآن ،لكن بعد زيارة فرح لبيت علياء ..سأضع بين يديك التصور كاملا .

نظرت له نسرين بعينين مذهولتين .

- أطمئني ..أنا أعرف فرح جيدا ذكائها حاد .

- أخشى عليها أن تصاب بمكروه هناك .

جلسنا نقنعها بأهمية هذه الزيارة حتى اقتنعت بشرط .

- سأتصل بوالدها وسنكون معكم أنا وهو هناك،لا يمكن أن تتحرك فرح بدوننا هناك.

- لا مشكلة غداً صباحاً سنذهب جميعاً إلى دمياط.

دخلت أنا ونورا حجرة فرح .

كانت جالسة على طرف السرير تضع قطنة في فمها .

نظرت إلينا .

- انتهت الحكاية ، لماذا جئتما ؟

ناولتها المسبحة :لنعطيك هذه .

نظرت إليها فرح بسعادة تلمست حباتها وتمددت على السرير وبدأت تسبح :لا أعرف كيف ضاعت ، الحمد لله أنها الآن بين يدي .

كانت نسرين واقفة ترقب المشهد وتبكي ،أمسكت نورا بيديها وأخذتها للخارج كما أوصى دكتور حسام أن نتركها مع المسبحة وننصرف .

أول اتصال أجريته فور عودتي للمنزل كان لكريم لأخبره بزيارتنا غدا وأطلب منه الاستعداد لها بالشكل الذي طلبه دكتور حسام ،طويت اليوم حتى جاء صباح يوم جديد .

استقللنا السيارة ،كنت أجلس ملاصقة لفرح أراقب نظراتها منذ خرجنا من المنزل حتى بدأنا في طريق دمياط ،في البداية كانت نظراتها مترقبة وعيونها زائغة ثم أصبحت نبضات قلبها أكثر انتظاما وتفتح صدرها للهواء تتنفس بعمق وكأنها الآن فقط خرجت للحياة.

بمجرد أن وصلنا للدار خرجت من السيارة تسير إلى البيت وكأنها لتوها تركته

تهمس أمها لأبيها : إنها لا تتحرك بهذه الحرية في بيتنا الذي عاشت فيه منذ ولدت ،كيف تفعل هذا في مكان غريب كهذا .

- إنه يفتقر للآدمية تلوث ومياة راكدة خلفه ، أنا لا أفهم هذه البنت ؟! كيف تحب مكان كهذا؟

اتجهت فرح لمكان التكية ونظرت له بابتسامة ونظرت لي ولنورا :شكراً .

فتحت الباب لتجد كل العائلة في استقبالها .

ارتمت في حضن كريم :حبيبي أشتقت إليك

احتضت جمال وسليم ومريم التي وضعت يدها على خدها قائلة : دموعك تأتيني كل ليلة في منامي يا بنتي تزوجي (الحي أبقى من الميت)

الكل صامت.. يبتسم جمال ويداري ابتسامته، مريم تنظر لها في ذهول، كريم وسليم ينظران لبعضهما البعض ،أما أمها وأبيها فيضعان يدهما على فمهما وعيونهما مفتوحة .

وحسب تعليمات دكتور حسام أتركوها تتحرك كيفما تشاء في الدار .

دخلت تلقي نظرة على الفرن : لا أحد له صبر على الخبيز مثلي وكل زوجات أبنائي يشترون خبز لا طعم ولا رائحة له حتى أنت يا مريم .

دخلت حجرة علياء أمسكت المسبحة ونامت بسريرها .

قال كريم هامسا لي :إنها الوضعيه التي ماتت أمي عليها ..وبدأت عينه تدمع هو ومريم .

يبدو أن نسرين سمعت ما قاله كريم صرخت نسرين : فرح، فرح.

فتحت فرح عينها ثم راحت في ثبات .

نسرين تبكي وتنظر لنا : بنتي ماتت فرح ماتت قتلوها .

أنا نفسي بكيت ووقفت أمام نسرين حائرة لا أعرف ماذا أقول،أما نورا فأصابها دوار ومغص شديد والتهاب في أعصاب قدمها أفقدها القدرة على الحركة، فحملت جسدها على دكتور حسام الذي كان متماسكا تماما ويؤكد أن كل شئ على ما يرام ،حتى وصلنا للسيارة ومعنا فرح التي حملها والدها وبيدها المسبحة مطبقة عليها حتى دخلت المشفى .

وبعد خمس ساعات قضيناهم في توتر شديد فتحت فرح عيونها ونظرت للمسبحة بين يديها باستغراب وتركتها تسقط على الأرض ،نادت أمها التي كانت قد انهارت تماماً ولم تكف عن الدعاء :ماما ..لماذا تبكين ؟

في قاعة المناقشة وقفت أمامي على المنصة دكتور حسام المشرف على الرسالة ويتقدم الحضور عمر ونورا اللذان كانا يمنحاني الثقة والتشجيع بعيونهما .

ـ حالة فرح من أصعب الحالات التي يمكن أن يواجهها طبيب في بدايته المهنية ،حالة قادتني إلى التفكيير في الغيبيات لعجزي في رحلتي معها عن إيجاد تفسير علمي لها ، فكان شكي يتأرجح بين التقمص والمس وعلميا كان التفسير المتاح قبل هذه الرسالة هو الهلوسة ،لكن بعد آخر مشهد في رحلتي معها توصلت لما يأتي .

كلنا نعرف الراديو ،هل يعرف أحد منكم كيف يعمل ؟

نظر لي عمر فأشرت له بيدي .

ـ موجات الصوت تلتقط من الهواء ،تصل للراديو ونسمعها من خلال جهاز معين .

نظرت للحضور :ما قاله المهندس عمر هوما حدث مع فرح تماما .

عقولنا تشبه جهاز الراديو كل ما نفكر فيه أو نقوله يضيع في الفراغ ، وداخل العقل خلايا عصبية صغيرة يجب أن تطبق عليها الإشارات العصبية الملائمة لها كي تصل للطرف الآخر.

وخلق الله هذه الإشارات بين الناس لكي يشعروا ببعضهم ومن هنا جاءت كلمة الإحساس .

ونجد هذا الشعور جليا بين الأم وإبنها ،وبين التوائم الذيم يستشعر كل منهم ما سيحدث للآخر فور حدوثه .

وهناك أنماط بشرية إحساسها أعلى تلتقط الإشارات من الهواء فتشعر بالشيء قبل حدوثه وهو يحدث بدرجات متفاوتة بين الناس ويصل لأعلى درجاته كلما ازداد نقاء المستقبل .

هناك أشخاص أيضا تطبق موجات عقولهم على موجات عقل شخص آخر فيعرفون فيما يفكر، ويدندنون بنفس الأغنية التي يغنيها في نفس الوقت أو يقولون نفس العبارة التي تجول بخاطره وهذا ما نسميه توارد الخواطر وهو يحدث لنا جميعا بدرجات متفاوتة ،ويزداد في حالة الحب ،فعندما نحب أحد تركز موجات عقلنا معه وتلتقط ما يفكر فيه ..وهذا يحدث حتى مع بعد المسافة بين الطرفين .

وهذه الحالة غالبا ما تحدث على مسافة عشرة أمتار وفي حالات الذكاء الشديد تصل ل200 كم مثلما حدث في حالة فرح .

ولقد درسنا هذه القصة التي عرفها العلماء قديما باسم موجات العقل المتطابقة حيث طبق البحث على صديقين بينهما تواصل عجيب كل منهما في مدينته كتبا في نفس الوقت ذات

الكلمات متقاطعة وحروف غير مفهومة بالمرة ففسر العلماء ذلك بموجات العقل المتطابقة ،الموجة تطير في الهواء وتنطبق على عصب الطرف الآخر فأكتب أو أنطق ما يشعر به هو بدون تفكير .

هذا نفسه ما حدث مع فرح ولكن يكمن هنا الاختلاف بأن لا ثمة علاقة إنسانية تربط بينها وبين علياء ،ولكن ظروفهما تطابقت تماما.. ففي نفس الوقت الذي دخلت فيه فرح المشفى بارتفاع حرارة شديد حزنا على جدتها كانت علياء في المشفي بحمى أفضت إلى موتها ، وكانت علياء تستعرض كل ما حدث في حياتها وانطبق هذا كله على الموجات العقلية في نفس الظروف ونفس الأزمة، وخاصة أن توارد الخواطر يكون أسرع في الأزمات ..كالمرض والحزن، وقتها يكون العقل والإحساس في أوج حركته والموجات والأعصاب قوية جدا مما يمكنها من الوصول لمسافات بعيدة .

وفي هذه المدة لم ينتقل لفرح من علياء فقط مجرد أفكار بل صور معينة ،فكانت علياء قبل أن تموت تستعرض في عقلها كل ما مر بها ..حبها للخبز ،الأكلات التي كانت تجيدها ،الحوارات التي دارت بينها وبين كل أفراد أسرتها وغيرت مصائرهم ..فحفظت ذلك فرح كله في عقلها وخزنته بالصوت والصورة ، وذكاؤها الشديد وقدراتها العقلية هي من هيأت لذلك.

الحقيقة أن هذه الحالة تؤكد أن عقولنا كما خلقها الله سبحانه تفوق الخيال وكل التطور التكنولوجي الذي وصل إليه الإنسان .

انتهت مناقشتي وحصلت على الماجستير بامتياز بل ومنحتني الجامعة وسام التميز عن بحثي بعنوان (الاستقبال) لأنني أول من أدخلت هذا المصطلح لعلم النفس ولفت انتباه الباحثين من بعدي له .

وكما وعدت عمر سوف نقيم حفل زفافنا بعد حصولي على الماجستير، وقررنا إقامة الفرح في حديقة فيلا عمر نهاراً ..ارتديت فستان زفاف بدون تطريز يلتف حول صدره شريط ستان على شكل فراشة ووضعت فوق رأسي إكليل زهور من الياسمين ، كان قلبي يخفق بشدة سأبدأ حياة جديدة مشتركة كما لم أفعل أبداً وسأرى أبي وأمي اليوم يجمعهما مكان واحد كما

لم يحدث منذ زمن ،أعرف أن أمي تنتظر هذه اللحظة منذ انفصالها عن أبي ، كانت دائمة القول سيجيء يوم ويعرف أنه خسرني عندما يراك أنت الوحيدة الناجحة في أبنائه سيندم على اليوم الذي قرر فيه الانفصال عني .

وبالرغم من أن قرار الانفصال كان قرارها هي إلا أنني كنت أسمعها دون تعقيب.. فللنساء حسابات أخرى .

كنت واثقة أن تمسكها بعمر كأفضل من تقدموا لي ، هو لأنه يناسب تماما مقاييس النجاح التي تعيرها أمي اهتماما كتخرجي في كلية الطب تماما .

اليوم أيضا يصادف عيد ميلاد فرح ووعدتني نسرين أن تأتي .

نورا تقف خلفي تماما بينما أرمي باقة الورد التي وعدتها أنني سأرميها بشكل يجعلها هيا وحدها من تلتقطها .

طوقتني نورا بعد أن تم لها ما أرادت :حبيبتي سوف ألحقك الآن بالزواج فأنا الوحيدة التي استطعت اقتناص الباقة .

ضحكت لها ضحكة ذات مغزي، بينما قال عمر وهو ممسك بيدي :وأنا الوحيد الذي استطعت اقتناص شهد .

أخذني من يدي لنجلس على الأرجوحة المعدة لجلوسنا مبطنة بالورود ،والمفاجأة كانت فرح جالسة عليها بفستان أحمر يدعو للبهجة .

اقتربت منها،كنت أود أن أحتضنها ولكن نظرة عينيها منعتني .

- مرحبا .

- مرحبا أنا شهد .

- أنا فرح .

- اليوم فرحي .

- يصادف عيد ميلادي .

-عيد ميلادك ، كل عام أنت بخير ترى كم أتممت من العمر ؟

جسدت على يديها تسعة أصابع .

أشار عمر لمنسقى الفرح .

فدخلوا بالتورتة أمسكنا يد فرح وقطعناها سويا .

- أتحبين الشيكولاتة .

- نعم ولكن تمنعني منها أمي حتى لا تتسوس أسناني .

- سأعطيك قطعة من التورتة بالشيكولاتة ،كليها بسرعة قبل أن ترانا .

فعلتها فرح وسط ضحكاتنا.

أخذنا بيدها وعلى أنغام الموسيقى بدأنا الرقص .

انتهت

الفهرس

الفصل الأول.....٨

الفصل الثاني.....٤٦

الفصل الثالث.....٨٨

للنشر والتوزيع